ميلينا بوسكيتس

وهذا أيضًا سوف يمضي

الترجمة عن الإسبانيّة
نهى أبو عرقوب



وهذا أيضًا سوف يمضي

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإسباني
Milena Busquets
También esto pasará

الكاتبة: **ميلينا بوسكيتس**

عنوان الكتاب: **وهذا أيضا سوف يمضي**

ترجمة: **نهى أبو عرقوب**

تدقيق وتحرير: **بلال المسعودي**

خط غلاف مسكلياني: **الفنّان سمير قويعة**

تصميم غلاف مسكلياني: **الشاعر محمّد النبهان**

تصميم غلاف منشورات تكوين: **ناصر عبدالله**

ر.د.م.ك: **978-9938-992-76-2**

الطبعة العربية الأولى: 2018



مسكيليانى للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: **21512226(216+)** أو **93794788(216+)**

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

منشورات تكوين للنشر والتوزيع

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: **0096598810440**

الموقع الإلكتروني: www.takweenkw.com

البريد الإلكتروني: takweenq8@gmail.com

إلى نويه وهيكتور
وإلى إستبان وإستر

1

لسببٍ مّا غريبٍ، لم أفكّر يومًا في أنّني سوف أبلغُ الأربعين من العمر. في سنّ العشرين، كنت أتخيّل نفسي في الثلاثين أعيش مع حبّ حياتي محاطةً بكثير من الأبناء، أو في الستّين أعدّ كعكة التفاح مع أحفادي، أنا التي لا أجيد قلي بيْضة، لكنّني قد أتعلّم. أو حتّى في الثمانينَ عجوزًا هرمةً تشرب الوسكي مع صديقاتها. غير أني لم أتخيّلْ نفسي مُطلقًا في الأربعين، ولا حتّى في الخمسين. وهأنذا اليومَ، في جنازة أميّ، وعلاوةً على ذلك، في الأربعين من العمر.

لا أدري كيف وصلتْ بيَ الأمورُ إلى هذا الحد، ولا كيف وصلْتُ إلى هذه القرية التي سبّبتْ لي، فجأةً، رغبةً رهيبةً في التقيّؤ. أعتقدُ أنّني لم أرْتدِ، طيلة حياتي، ثيابًا على هذا النحو البائس. وحين أصلُ إلى البيت سأحرق كلّ ما ارتديتُه اليوم، فهو مغموسٌ في التّعب والحزن ولا يصلح للاحتِفاظ به.

لقد حضرَ كلّ أصدقائي إلاّ عددًا قليلًا جدًّا، وبعضُ أصدقائها، وآخرونَ من الذين لم يكونوا يومًا أصدقاءَ لأحد. حضرَ عدد غفير من الناس وغاب آخرون؛ ففي نهايةِ المطاف، كانَ المرض الذي أزاحها عن عرشها بقسوةٍ وأطاح بمملكتها دون رحمة، قد ألحقَ

الأذى بنا جميعًا، نحنُ المحيطينَ بها، وسيكون لهذا ثمنُه ساعةَ الدّفن، طبعًا. فمن جهةٍ، ثمّة أنتِ، المتوفّاةُ التي آلمتهمْ جميعًا بما يكفي. ومن جهةٍ أخرى، ثمّة أنا، الابنة، التي لا أروقهم كثيرًا. وهو ذنبك بالطبع يا أمي، إذ كنتِ تُلقينَ، شيئًا فشيئًا ودون وعي، كامل المسؤوليّة في أفول سعادتك على كاهليّ. وكانت تثقلُ عليّ، تثقلُ عليّ حقًّا حتى وأنا بعيدةٌ، حتى بعد أنْ بدأتُ أفهمُ ما كان يجري وأتقبّله، وحتى حين ابتعدتُ عنكِ مدركةً أنّني إنْ لم أفعل، سأموتُ معكِ، تحت أنقاضِك. ورغم ذلك، أعتقد أنّك كنت تحبّينني، لا كثيرًا ولا قليلًا، بل تحبّينني وحسب. فلطالما فكّرتُ في أولئك الذين يقولون «أحبّكَ كثيرًا»، إنّما هم في الحقيقة يحبّونكَ قليلًا، أو لعلّهم يضيفون «كثيرًا»، التي تعني في هذه الحالةِ «قليلًا»، خجلًا أو خوفًا من قطعيّة كلمة «أحبّكَ» بمفردها، والتي هي الطريقة الوحيدة لقوْل «أحبّكَ». فكلمة «كثيرًا» تحوّل الفعلَ «أحبّكَ» إلى شيء يشملُ الناس كافّة، في حين يكاد يكون، في واقع الأمر، على النّقيض من ذلك تماما.

«أحبّكَ»! تلك العبارةُ السّحريّة التي بوسعها أنْ تحوّلك إلى كلبٍ، أو إلهٍ، أو معتوه، أو إلى ظلّ. ثُمّ إنّ العديد من أصدقائِك كانوا يُسمّوْن «تقدميّين»، أمّا الآن فلا أعتقد أن أحدا مازال يُطلقُ عليهم هذه التّسمية أو لعلهم اندثروا أصلًا. أولئك الذين لم يكونوا مؤمنين بالله ولا بالحياةِ بعد الموت.

مازلت أذكر تلك الحِقبة التي كان فيها عدم الإيمان بالله صيحةً دارجة. لكن لو قال أحدهم، اليومَ، إنّه لا يؤمنُ بالله ولا بفيشنو[1]،

(1) هو الإله الأعلى أو الحقيقة العليا في الهندوسية الفيشنوية.

ولا بالأرض الأمّ ولا بالتناسخ، ولا بروح من لست أدري، ولا بأيّ شيء، لنظروا إليه بعين الشّفقة قائلين: «من الواضح أنّك قد حُرمت النّور». والأكيد أنّ كلّ من حضر اليوم قد فكّر على هذا النحو قبل مجيئه: «من الأفضل أنْ أبقى في البيت، جالسًا على الأريكة، وزجاجةُ النّبيذ في يدي، أؤبّنُ المرحومةَ على طريقتي الخاصّة التي قد تكونُ أجدى من التأبين الذي يقام لها هنالك في الجبل رفقةَ ولديْها الملعونيْن». وعلى كلّ حال فإنّ مراسم الدّفن ليست هي الأخرى سوى عُرفٍ اجتماعيٍّ، أو شيء من هذا القبيل. وأفترض أنّهم غفروا لك -إنْ كان ثمّة ما يستوجبُ الغفران- وأحبّوك. أمّا أنا، فقدْ كنتُ أشاهدكم في صِغري تضحكون وتلعبون الورق حتّى الصّباح وتسافرون وتسبحون في البحر عراة وتخرجون مساءً للعشاء، وأعتقدُ أنّكم كنتم تستمتعون معًا. لقد كنتم سعداء.

إنّ مشكلةَ العائلات التي يختارها المرءُ بنفسه هي انفصامها أسرعَ بكثيرٍ من العائلات القائمة على رابطة الدّم. فالكبار الذين تربّيتُ بينهم متوفّون الآن أو لا علم لي بمكانهم. ولن يتكبدوا -طبعا- عناء الوقوف تحت هذه الشمس الحارقة التي تذيبُ الجلد وتشقّقُ الأرض. حدثٌ أليم، وجنازة، ووطأة ساعتيْ الطريق وصولًا إلى هنا. أحفظ هذا الطريقَ الضيّقَ المتعرّجَ بين أشجار الزيتون، عن ظهر قلبٍ. فهوَ -رغم أنّنا لم نكن نقضّي سوى شهريْن من السنة في القرية- طريقُ العودةِ إلى البيْتِ وإلى كلّ الأشياء التي كنّا نحبّها، أوْ كان كذلك. فالآن لم أعُد أدري ما هو.

كان عليّ أنْ أُحضِر قبّعة، مع أنّني كنت سأضطرّ لاحقًا إلى إلقائها

في سلّة المُهملات هي الأخرى. أشعر بالدّوار. وأفكر في الجلوس جوار هذا الملاك الخطِر بجناحيْه الشبيهيْن بسيفيْن وألاّ أنهضَ أبدًا. اقتربتْ منّي كارولينا التي تتفطّن دائما إلى كلّ شاردةٍ وواردة. فأمسكتْ بذراعي ورافقتني حتّى الجدار الذي هو أقربُ نقطةٍ يمكنُ أنْ نرى منها البحر، عندَ نهاية تلّةٍ من أشجار زيتون هزيلةٍ، مُبتعدةً بي عن أنظار الآخرين. يا أميّ: لقد وعدتِني أن تنتظم حياتي وتترتّب بعد موتك، وأنّني سأحتمل الألم، لكنّك لم تقولي لي إنّ رغبةً ستتملّكني أيضا، رغبة في أنْ أنتزع أحشائي وآكلَها. وقد قلتِ ما قُلتهِ قبلَ أنْ تبدئي الكذب، نعم، فقد جاءتْ لحظةٌ بدأتِ تكذبين فيها -لا أدري لماذا- مع أنّك لم تفعلي ذلك من قبل. من بيْنِ الحاضرين، أيضًا، أصدقاء قلّما كانوا يروْنك، ويذْكرونكِ فقط حينَ كنتِ ذلك الشخصَ المتألّق قبل عشرة أعوامٍ أو عشرة آلاف عام. وصديقاتي، كارولينا وميرثيه وإليسا وصوفيا. أمّي: لقد اتّخذنا قرارنا بألاّ نَدفن «باتوم» معك. فهذه ليست مصر الفرعونيّة. أعرفُ جيّدًا أنّك كنت تقولين ألاّ معنى لحياتها من دونِك. لكنّها، من جهةٍ، كلبةٌ ضخمةٌ لا يتّسع القبر لها -أتخيّل رَجُليْ الدّفن وهما يدفعانِ بها من مؤخّرتها محاوليْن حشرها فيه، مثلما كنّا نفعلُ مرّاتٍ عديدةً في عرض البحر بعد السباحة، كي نساعدها على الصعود إلى المركب عبرَ درجات السّلم- ومن جهة ثانية، فلا ريب في أنّ دفنَ شخصٍ مع كلبٍ عملٌ مخالفٌ للقانون، حتّى وإنْ كان ميْتًا مِثلَكِ. فأنت الآن ميْتةٌ يا أمّي. مرّ يومان وأنا أكرّر ذلك وأردّده لنفسي وأسألُ صديقاتي عنه لأتحقّق من صحّته، فلعلّ ثمّة خطأ مّا أو أنّني لم أسمع جيّدًا فاختلط عليّ

الأمر. لكنّهنّ كُنّ يؤكّدنَ لي في كلّ مرّة، أنّ ما لم يخطرْ ببالي قدْ وقع حقًّا. وفضلًا عن والديْ ابنيّ، لم يكن بين الحضور من يثير الاهتمام غير رجلٍ أجهلُ هويته. ورغم أنني أوشك على الإغماء من الرّعب والحرّ، فإنّ نظري مازال باستطاعتهِ الوقوع على رجلٍ جذاب. تلك هي غريزةُ البقاء ولا شكّ. أتساءلُ ما هو البروتوكول المعمول به من أجل إنشاء علاقةٍ مع أحدهم خلال مراسم الدّفن. أتساءل إنْ كان سيأتي لتعزيَتي. لا أظنّ أنّ هذا الجبان الوسيم سيفعل. ثمّ ما الذي جاء بجبان إلى جنازة أشجع من عرفت في حياتي؟ وتلك الفتاةُ التي بجوارِك، تضغطُ على كفّك وتنظرُ إليّ بفضولٍ وإلحاح، أتكونُ صاحبتَك؟ أليستْ قصيرةَ القامةِ مقارنة بك؟ حسنًا أيّتها القزمةُ صاحبةُ الجبان الغامض، اليومَ هو يوم جنازة أمّي، وليَ الحقُّ في قول أو فعل ما يحلو لي. أليس كذلك؟ كما لو أنّه يومُ عيد ميلادي، فلا تؤاخذيني على ذلك.

انتهت الجنازة. عشرون دقيقةً في المُجملِ، وَسط صمتٍ يكادُ يكون مطبقًا. إذ لم يتخلّلْها خُطَبٌ ولا قصائدُ -فقد أقسمتِ بأنْ تقومي مِن قبركِ وتلاحقينا إلى الأبد إنْ فعلها أحدُ أصدقائك الشعراء وتقدّمَ ليلقيَ شيئًا- ولا صلواتٌ، ولا ورودٌ، ولا موسيقى. وكان يُمكن لها أنْ تنقضيَ بعدُ أسرعَ لو لم يكن العاملان العجوزان، المكلّفان بإنزال التّابوت في القبر ثقيليْ الحركة إلى هذا الحدّ. أتفهّم ألاّ يقتربَ الرّجلُ الجذّابُ ليغيّرَ حياتي وإنْ كنتُ، من جهةٍ أخرى، لا أرى لحظةً أنسب لهذا ولا أشدّ إلحاحًا، لكنْ كان بوسعه على الأقلّ أن يساعدَ العجوزيْنِ حينَ كادَ التابوتُ يسقطُ منهما على الأرض فانفعلَ

أحدهما لاعنًا الآلهة! وكانت عبارتهُ الكلماتِ الوحيدةَ التي نُطقتْ في جنازتك، وبدتْ لي مناسبة ودقيقةً للغاية. من الآن فصاعدًا، أفترضُ أنّ أيّ جنازةٍ سأشاركُ فيها ستكون جنازتك. نزلْنا التلّة وكارولينا ممسكة بيدي. لقد قُضيَ الأمر وها هي أمّي قد توفّيت. أعتقد أنّني سأستقرّ في كاداكس، هذا خيرٌ لي، بما أنّك بتِّ الآنَ تعيشين هنا.

2

حسب ما أعلمُ، فإنّ الشيءَ الوحيد الذي لا يسبّب الخَدرَ والصّداع ويبدّدُ الموت بصفة مؤقّتة -وكذا الحياةَ- هو الجنس. فأثره الصاعق يحيلُ كلّ شيءٍ إلى حطام، لثوانٍ معدوداتٍ فقط، إلاّ إذا ذهبتَ في النّومِ بعدها مثلما يحدث غالبًا، فإنّ تأثيره يدومُ أطولَ قليلًا. ثمّ سرعانَ ما تعود الملابسُ والأثاثُ والذّكرياتُ والمصابيحُ، والذّعرُ والألمُ -وكلُّ ما كان قد اختفى في زوبعةٍ شبيهةٍ بتلكَ التي في ساحر أوز[1]- لتحطَّ من جديدٍ على الأرضِ وتحتلَّ مكانها السابقَ تمامًا؛ في الغرفة، وفي الذّهن، وفي الأحشاء. فتحت عينيّ فلمْ أجد نفسي محاطةً بالورود ولا بالأقزام المُغنّيةِ الظريفة، بل ممدّدةً في الفراشِ إلى جانبِ زوجي السابق. كانَ البيتُ غارقًا في السكون، ومن النافذة المفتوحة تتناهى إليّ صيحاتُ أولادٍ يلهون في بركةِ الماء. كانَ الضّوء الأزرق البلوريّ يَعِدُ بيومٍ مُشمسٍ وأكثر دفئًا، وكانت رؤوسُ أشجار الدّلب التي لمحتُها من الفراش تتمايلُ بهدوءٍ وبلا مبالاةٍ مُدهشةٍ بالكوارث من حوْلها. يبدو أنّها لم تتأثر بالاحتراقِ التلقائيّ ليلًا، ولم تتحوّل أغصانُها إلى سيوفٍ ناريّة متطايرةٍ وفتّاكة، إذ لم تكنْ تقطرُ دمًا ولا

(1) «ساحر أوز العجيب» رواية للأطفال كتبها ليمان فرانك بوم وحوّلت إلى فيلم موسيقيّ كوميديّ (1956).

أيّ شيءٍ من هذا القبيل. نَظرتُ إلى أوسكار بطرف عيني دون أنْ أتحرّك، لعلمي أنّ أدنى حركةٍ قد تصدر منّي ستوقظه. مضى وقتٌ طويلٌ لم ننم فيه معًا. تأمّلتُ جسدَه الكبير والقويّ؛ صدرَه البارزَ بعضَ الشيء، وردفيْه الضّيقيْن، وساقيه المعتادتيْنِ على ركوب الدرّاجة، وأساريرَ وجهه الكبيرةَ وقسماته المستديرةَ الذكوريّة التي تكتسيها في بعض الأحيان مسحة حيوانيّة طفيفة في طريقة تعبيرها وصرامتها. قالت لي أمّي بعد أنْ صادفته للمرّة الأولى في مصعد البيت: «إنّه يعجبني، فملامحه رجوليّة» وخمّنتْ، دون الحاجةِ لأيّةِ شواهدَ، بأنّ ذلك الفتى الذي له رأس ثورٍ وجسدُ مراهق خجول، والمشرئبّ دومًا إلى الأمام بعضَ الشيء، كان يتردّد إلى شقّتي. وقالتْ له ملاطِفةً: «الجوّ حارٌ جدًّا، استحممتُ بثيابي وجلستُ بها مبتلّةً إلى طاولةِ الكتابة، فجفّتْ في نصفِ ساعةٍ». عندما وَصل إلى شقّتي، كنتُ أنتظره مُرتشعةً شوقًا، أمّا هو فقد كان مغرقًا في الضّحكِ وقالَ لي: «يبدو أنّني قد تعرّفتُ إلى أمَّكِ للتّو». في وقتٍ ما، كان جسدُ أوسكار مأوايَ الوحيد، المكانَ الأوحدَ في العالم. ثمّ صار لنا طفل. وفيما بعد، عرفَ كلّ منّا الآخر. يحاولُ المرءُ أنْ يتصرّف مثل حيوانٍ في الغاب، مسترشدًا بغريزته وجلده، وبدورةِ القمر، ومستجيبًا بلا تلكّؤٍ، وبامتنانٍ وبنوعٍ من التّخفيفِ عن ذاته، لكلّ متطلّباتِه التي لا تحتاج إلى التفكير، لأنّ الجسدَ والنّجوم قد فكّرت فيها بدلًا منه من قبلُ واختارتها له. لكنّ الزمن مهما يطول، فإنّ اليوم الذي يجب أنْ يقف

فيه على قدميْن ويبدأَ بالكلام، يأتي في النهاية. وهذا الذي لم يحدثْ نظريًّا سوى مرّةٍ واحدةٍ في تاريخ الإنسانيّة -أي الكفُّ عن المشيِ على أربع، والوقوفُ على قدميْن والبدءُ في التفكير-، وهذا ما يحدثُ لي شخصيًّا كلّما وقعتُ في الحبّ. وفي كلّ مرّة يكون السقوطُ مدويًّا. لم أعد أتذكّر عدد المرّات التي حاولنا فيها أنْ نستعيد علاقتنا. كانَ هنالك، دومًا، عائقٌ مّا يعترضُ طريقنا، يتعلّقُ في الغالب باختلاف طباعنا. الآن صارت له عشيقة. لكنّ هذا لا يمنعه من تقاسم الفراش معي في هذه اللّحظة، ولا من المكوث إلى جانبي طوال تلك الشهور الستة الأخيرة من الغمّ والمشافي والأطّباء والمعارك الخاسرةِ التي لا أمل في كسبها. أمّي! كيفَ ظننت أنّه ما يزالُ ثمّة إمكانيّة لتربحي المعركة الأخيرةَ، تلك التي لا يربحها أحدٌ على الإطلاق؟ ولا حتى أذكى البشر، ولا أقواهم ولا أشجعهم ولا أسخاهم، ولا من هم أكثرُ استحقاقًا لها. كنتُ سأسلّمُ بالأمر لو أنّكِ متِّ ميتةً هادئة. لقد تكلّمنا كثيرًا عن الموت، لكنّنا لم نفكّر أبدًا في أنّ هذا اللّعينَ سيسلبُ عقلكِ قبل أنْ يسلبَك كلّ شيءٍ آخر، وأنّه لن يترك لك سوى نوباتٍ متقطّعة من بصيرةٍ ما كانَت إلاّ لتجعلكِ تعانين أكثر.

أوسكار مدافعٌ متحمّسٌ عن قدرات الجنس العلاجيّة. هو واحدٌ من أولئك الرّجال الذين ينعمون بحيويّةٍ كبيرةٍ وصحّة سويّة، ويروْن أنّه ما من تعاسةٍ أو حزنٍ أو خيبةٍ يعجزُ الجنسُ عن علاجها. أنت حزين؟ عليكَ بالجنس، يؤلمك رأسك؟ عليك بالجنس، تَعطّل حاسوبُك، عليك بالجنس. أفلَست؟ عليك بالجنس، توفّيتْ أمّك؟ عليك بالجنس، وأحيانًا ينجحُ الأمر. انسحبتُ بخفةٍ من السرير.

يرى أوسكار أيضًا أنّ الجنس هو خيرُ طريقةٍ تبدأ بها يومَك. أمّا أنا فأحتاجُ في الصباحِ عادةً إلى أنْ أكون غيرَ مرئيّة وألاّ أبلغَ التجسّد المكتمل إلاّ لحظةَ الفطور. كانَ حوضُ المطبخِ يغصّ بالصحون المتّسخة ولم يكن في الثلاّجة سوى بعض علب اللّبن مُنتهية الصلاحيّة وتفّاحةٍ متغضّنةٍ وزجاجتيْ بيرّة. فتحتُ واحدةً، إذ لم يكن ثمّةَ قهوةٌ ولا شايٌ. كانتْ الأشجارُ تحيّيني عبر نافذة الصالون محرّكةً أوراقها، وانتبهتُ إلى أنّ الستائر المعدنيّة في بيت الجارة العجوز التي تسكن في الجهة المقابلة كانت مُسْدلة. قد تكون مسافرةً في إجازة أو قد تكون توفيّت هي الأخرى. فمن يدري. انتابني شعورٌ بأنّني أقمتُ شهورًا طويلةً بعيدًا عن هذا المكان.

كان عرقُ ليلةِ البارحة وعرق الرّجل القويّ الذي كنت نائمةً معه ما يزال عالقا بي. دسستُ أنفي داخل ياقة قميصي فتعرّفتُ على رائحةَ الآخر فيّ، والآثارَ الخفيّةَ التي خلّفها اجتياحُ جسد آخرَ لجسدي، وبشرةٍ أخرى لبشرتي الليّنة النفّاذة، وعَرَقٍ مختلف عن عَرقي. حتّى الاغتسالُ لا يمكنه، أحيانًا، تبديد هذا الحضور، فأظلّ أشعر به لأيّام وهو يلفّني مثل ثوبٍ جريء ومُغرٍ، ويبتعدُ في كلّ مرّةٍ أكثر، إلى أنْ يتلاشى تمامًا. قرّبتُ كأس البيرّة من وَجنتي وأغمضتُ عينيّ. من الناحيّة النظريّةِ، كان هذا وقتيَ الأثيرَ من السنة. لكنْ لا خُطط لديّ. منذُ شهورٍ وأنا لا خطّة لي سوى تدهور حالتك، بل منذ سنواتٍ ربّما. سمعتُ أوسكار من غرفة النّوم يتململُ في فراشه، ويناديني: تعالْي، تعالْي بسرعة، أريدُ أنْ أطلعك على أمرٍ في غاية الأهميّة.

كانتْ تلكَ واحدةً من حِيَله الإغوائيّة، وقد تظاهرتُ بعدمِ سماعه. فلو أنّي ذهبت، لما نهضتُ من الفراش حتى ساعة الغداء. ولا وقتَ لديّ، فالموتُ يتبعه ألفُ إجراء. أخيرًا، وبعد أنْ أمضى عشر دقائق مُدمدمًا بأنّه أضاعَ سرواله الدّاخليّ وأنّه واثقٌ من أنّني قد خبّأته -بالطبع! فلم يكن ثمّة ما يشغلني سوى أنْ ألعب الغميّضة مع سروالك الدّاخلي- خرجَ من الغرفة، ودون أنْ ينبسَ ببنتِ شفة، وقفَ خلفي وأخذ يقبّلُ عنقي وأنا ملتصقةٌ بالطاولة، ظللْتُ أرتّبُ أوراقي كأنْ لا شيء يحدث. عضّ أذني بقوّة. فاحتججْت. ماذا لو صفعتُه. وحين بدا لي أنّ ذاكَ هو الخيار الأفضل وهممْت بفعله، كان الأوانُ قد فات كثيرًا -يمكنُ قولُ الكثير عن الطريقة التي ينزع بها عشيقٌ لباس عشيقته الدّاخليّ أو يجرّدُها منه- وما كانَ من الحيوانِ الذي يوجدُ فيّ، والذي قد يكونُ الشيءَ الوحيد الذي لم يتحوّل إلى رمادٍ خلال الشهورِ الأخيرة، إلاّ أنْ أحنى ظهره، وأسندَ يديْه إلى الطاولةِ وشدّ جسمَه كاملًا. كنتُ أظّن، إلى حدود اللّحظةِ الأخيرة، أنّني سأوجّه له لطْمة، لكنّ قلبيَ الآخر، ذلك الذي غزاه بسلاحِه الذكريّ، أخذ يخفقُ، في نهاية المطاف، فلم أعدْ أفكّرُ في شيْء.

- يجبُ ألاّ تشربي البيرّة صباحًا... وألاّ تدخّني. أردفَ قائلًا بعد أنْ رآني أشعل سيجارة.

ونظر إليّ بالوجهِ ذاته الذي ينظرُ إليّ به الجميعُ منذ عدّة أيّام؛ خليطٌ من القلق والأسف. وأنا لا أعرف إنْ كانت هذه الوجوه انعكاسًا لوجهي أم العكس. فمنذ أيّامٍ لم أنظرْ إلى نفسي في المرآة

أو لعلّني كنتُ أنظرُ فيها ولا أراني، أقفُ أمامها كي أرتّب هندامي فحسب. ولم يحدث أنْ ساءت العلاقةُ بْيني وبينها إلى هذا الحدّ أبدًا. فمرآتي، شبيهي، شقيقي، semblable, mon frère[1]، مُنهمكةٌ في تذكيري بأنّ العيدَ قد انتهى.

ثمّة في نظرةِ أوسكار، فضلًا عن القلق والأسف، حنانٌ وعاطفةٌ تقاربُ الحبّ إلى حدٍّ كبير. لكنّني لستُ معتادةً على إثارة شفقة الآخرين، ولهذا شعرتُ بالغثيان. أيمكنكَ أنْ تغيّرَ هذه النظرةَ وتعودَ إلى تلكَ التي نظرتَ إليَّ بها قبلَ خمسِ دقائق من فضلك؟ أيمكنك أنْ تعودَ لتحوّلَني إلى غرضٍ، إلى لعبة؟ إلى شيءٍ يحوي المتعةَ ويمنحُها ولا يعرفُ الحزن، إلى تلك البنتِ الصغيرةِ التي لم تفقدْ بعدُ حبّ حياتها وما تزالُ تحلّق في شوارع برشلونة على درّاجتها، دون أنْ تصل في الموعد أبدًا؟

- أعتقدُ أنّ عليكِ تغيير المكان لبضعة أيّام. استنشقي هواءً جديدًا. فلا شيء تفعلينه هنا، والمدينةُ مهجورة.
- نعم، أنت محقّ.
- لا أريدُ أنْ تظلّي وحيدة.
- ولا أنا أريد ذلك -لم أخبره بأنّني طوال الشهورِ التي مضت كنتُ أشعر بالوحدة-.
- الأسوأ قدْ انقضى.

---

(1) بالفرنسية في الأصل والعبارة من خاتمة قصيدة بودلير الشهيرة (إلى القارئ).

أخذتُ أضحك..

- الأسوأ والأجمل معًا... لقد مضى كلّ شيء.

- ثمّة أُناسٌ كثرٌ يحبّونك.

لا أدري كم مرّةً قالوا لي هذه العبارة خلال الأيّام الماضية. لقد استُنْفِرَ جيشُ الصامتينِ والثرثارينَ من الناس الذينَ أحبّهم في اللّحظة التي كان فيها كلّ ما أريده هو أنْ أندسّ في فراشي وأن يتركوني بسلام، وأنْ تجلسَ أمّي إلى جانبي، تمسكُ يدي بإحدى يديْها، وتضع الأخرى على جبيني.

- نعم نعم، أعلم ذلك، وأشكرك حقًّا. -لم أخبره بأنّني لم أعدْ أؤمن بأنني محبوبةٌ، وأنّ أمّي نفسَها كفّت عن حبّي في وقتٍ من الأوقات، وأنّ الحُبّ هو أقلّ ما يُعوّلُ عليه في هذا العالم-.

- لِمَ لا تذهبين إلى كاداكس لبعض الوقت؟ فالبيتُ هناك، صار لك الآن.

ولكنْ، ماذا تقولُ أيّها الرجلُ المجنونُ البذيء الأحمق؟ خطر لي سريعًا وأنا أنظر في عيْنيه الواسعتيْن، الحانيتيْن والقلقتيْن. البيتُ لأمّي وسيبقى لها.

- لا أدري. أجبتُ.

- وها هو ذا قاربكم في البحر. ستكونون بخير هناك.

لعلّه محقٌّ. قلت لنفسي. فلطالما حفظتْني من السّوء، ساحراتُ

تلكَ القرية المحصّنةِ بالجبالِ، وبطريقِ جهنّميٍّ وريحٍ وحشيّة، تلك القرية التي تصيبُ بالجنونِ كلَّ من لا يستحقُّ جمال سماواتها وضوء غروبها الورديّ صيفًا. كنتُ في طفولتي أراهُنَّ، مُعتلياتٍ برجَ الكنيسة يُقهقهْنَ أو يقطّبنَ حواجبهنّ، وهنّ يطردْنَ القادمينَ الجُدد أو يرحّبنَ بهم، أو يُثرنَ المشاجراتِ حتّى بينَ العشّاقِ المُتيّمين، ويُرشدنَ قناديلَ البحرِ إلى السيقانِ والبطونِ التي يجب أنْ تلدغها، ويضعنَ -على نحوٍ استراتيجيّ- قنافذَ البحر تحت أقدامٍ معيّنة، ويرسمن صباحاتٍ فاتنة تُسكّنُ أفظعَ الآلامِ، فيحوّلنَ كلّ شارعٍ وكلّ ركنٍ في القريةِ إلى غرفِ نومٍ فاتنةٍ، تلفّكَ بموجاتٍ مُخمليّةٍ كفيلةٍ بأن تبدّد كلّ أحزانِ العالم وأوجاعه. وها قد أُضيفت إليهنَّ، الآن، ساحرةٌ أخرى.

- نعم، لعلّك محقّ. كاداكس، سأذهب إلى كاداكس. وأردفتُ قائلةً: «تارا، بيتي، ترابُ تارا الأحمر، سأرجعُ إلى تارا.. على كلّ حالٍ غدًا يومٌ آخر».

وجرعتُ جرعةً كبيرةً من البيرّة.

- من أيّ فيلم اقتبستُ هذه العبارة؟

- أعتقد أنّك تخلطين عباراتٍ من «ذهب مع الرّيح» مع أخرى من «إي.ت». قال ضاحكًا.

- نعم. ربّما. فالبيرّةُ على معدةٍ فارغةٍ تجعلُ أكبر الحماقات تخطر في بالي. كم مرّةً أجبرتكَ على مشاهدة «ذهبَ مع الرّيح»؟

- كثيرًا.

- وكم مرّة غلبكَ النّعاس وأنت تشاهده؟

- في كلّ مرة تقريبًا.

- كانتْ لك دومًا نظرةٌ سلبيّة تجاه السينما. هكذا أنت، تريدُ أنْ تبدوَ مختلفًا.

للمرّةِ الأولى لم يجبْني، اكتفى بالنّظرِ إليّ مبتسمًا بعينيْن مُفعمتيْنِ بالأشواق. أوسكار، هو أحد الأشخاصِ البالغينَ القلائل الذينَ ينعكسُ على وجوههم تعبيرُ الشوق، على طريقةِ المجوس الثلاثة[1]. لم أقلْ له ذلكَ قطّ، ولا أعتقد أنّه على علمٍ به. فهيئةُ المشتاق من أصعب ما يمكن أنْ يتصنّعه المرءُ، وهي تتلاشى بتلاشي الأشواقِ -الحقيقيّةِ منها والطّفوليّة- فلا تبقى سوى محضِ رّغبات.

- سيكون كلُّ شيء على أحسن ما يرام، يا بلانكا. سترَيْن.

- أعرف هذا. قلتُ كاذبةً.

أخبرني بأنّ عليه أنْ يسافر لأيّامٍ إلى باريس من أجل العمل، وأنّه مع ذلك سيقصدُ كاداكس لرؤيتنا حين يعود، وسيقضّي معنا بضعة أيّامٍ. ثمّ تنهّدَ وأردف قائلًا: «لا أعلم ما الذي سأفعله بشأن حبيبتي». هكذا هم الرّجالُ، ينتهي بهم المطافُ دائمًا.. دائمًا.. دائمًا.. دائمًا إلى اقترافِ حماقةٍ تفسدُ الأجواء. ارتسمت على وجهي ملامح القلق الشديد، وهي الأخرى هيئةٌ يصعبُ تكلّفها. لكنها لم تكن،

(1) المجوس الثلاثة أو الملوك المجوس أو الحكماء الثلاثة من الشرق، هم ثلاثة أشخاص ذُكروا في إنجيل متّى إصحاح 2. وهو أيضًا عنوان فيلم رسوم متحركة إسباني أخرج عام 2003.

على أيّ حال، بحدة ارتسام هيئة المشتاق. وصفقتُ الباب.

- وأنا لا أدري ماذا أفعلُ بأمّي يا رجل!

3

من وجهةِ نظرِ نيكولاس، أنتِ الآن في السماء تلعبين البوكر مع غوريلاّ الثلج[1]. هو الذي لم يتجاوز بعدُ الخامسة من العمر، يشرحُ الأمر بإيمانٍ بالغٍ حتّى لأكادُ أصدّقه. وأنا، مِن قمّة سنيّ الأربعين -وقد بتُّ مقتنعةً في الآونةِ الأخيرة التي عرفتكِ فيها معرفةً لا حدّ لها (أو قد لا أكون) أنّ صغيريَّ وحدَهما، دون غيرهما، كانا يمتلكان، على نحو عجيبٍ، مدخلًا إليكِ، وهما وحدَهما كانا قادريْن أنْ يريا الشّخص الذي كنتهِ، من خلال المرض والضّباب، وأنْ يصلا إليه، وكانَ لهما ما يكفي من الطّيبة والذّكاء لجعلك تنبعثين من جديد- لا أتخيّلُ لك مكانًا خيرًا منه. إنّ هذيْنِ المحظوظيْنِ لم يكرهاكِ ولو للحظة. وها أنت تظهرين الآن، في رسوماتهما محلّقةً فوق رؤوسنا، ساحرةً ساحرةً وجنّيةً متذاكيةً في آن. وهذا لا يخالف كثيرًا سيرتك في الحياة.

عادَ ولدايَ بعدَ أنْ أمضيا أيّامًا في بيْتِ غيليم والدِ الابن البكر. كانا مُسمرّيْن وأطولَ قامةً مما كانا عليه، ومُحمّليْن بتشكيلةٍ

---

(1) الغوريلا الثلجي/ الأبيض: هو الغوريلّا الأبيض الوحيد في العالم، موطنه الأصلي السّهول الغربيّة لإفريقيا الوسطى، جُلب إلى إسبانيا واحتفظ به في حديقة حيوان برشلونة وبات أهمّ رموزها. بقي هناك حتّى وفاته عام 2003. وقد استوحيَ منه الفيلم الإسباني غوريلا الثلج، أخرج عام 2011.

من الطماطم والخيارِ من بُستانِ والدِكِ؛ هدايا الفاكهة والخضر التي أتلقّاها دومًا بشغفٍ كبيرٍ ثمّ ينتهي بها المطافُ إلى سلّة المهملات حالما تظهر لي حشرةٌ بينها وأنا أجرّبُ غسلها بغيرِ حماسٍ، مثلما أفعلُ مع أيّةِ مهمّةٍ ريفيّة.

- غيليم، لا أريد سوى تفاحاتٍ كتفاحاتِ الفتاةِ «بياضِ الثّلج». مشكلتي مع التفّاح الطبيعيّ أنّني لا أقضم حبّة منهُ إلاّ ويخيّل إليّ أنّني سأعثر على دودةٍ فيها. وهذا يفزعني. تفهمُني، صحيح؟

- بالطّبع، فأنت تحبّين التفاحات المسمومة. أليس كذلك؟ حسنًا لا عليكِ، في المرّةِ القادمةِ سنجلب لك بعضًا منها، علّ هذا يحلّ المشكلة.

ومثّلَ بيدهِ حركةَ جزّ العنقِ، مُغمضًا عينيْه ومادًّا لسانه خارج فمه، فأضحكَ الولديْنِ اللّذينِ يعشقانِ تركيبته الخاصّة من الجنون والحسّ العمليّ، وقدرتَه على أن يقصّ عليهما يوميّاتِ الثورة الفرنسيّة بأدقّ التّفاصيل، ليتوجّه بعدها مباشرةً نحو البستان لزراعة الطّماطم.

غيليم عالمُ آثار، شِرّيبٌ ومثقّفٌ، منخرطٌ في نشاطات تضامنيّة، ذكيّ، وذو نزعةٍ كتلانيّة، لطيفٌ ومرواغ، قويّ الشّخصيّة ومتشكّكٌ، كريمٌ، مَرِحٌ جدًّا وعنيدٌ جدًّا. وشعاره: «لا وقت عندي للحماقات» وفي الحقيقة، إن استثنينا السنوات التي أمضيناها معًا، وقد كانَ عنده وقتٌ كثيرٌ للحماقات، فقد ظلّ وفيًّا لهذا الشعار. كانت تربطنا علاقةُ الحبّ-الكره. كنتُ أحبّه وكان هو يتظاهر دومًا بِكرهي. لكن كان في كُرهه من الأشياء الجميلة أكثرَ بكثيرٍ مما في حُبّ غالبيّة الأشخاص

الذين عرفتهم. بقي مع باتوم، كلبةِ أميّ التي كانتْ لنا على مدى أعوامٍ قبل انفصالنِا. ثمّ تركتُها ذاتَ يوم عندَها لأنّني مسافرة، وحين عدتُ، قالت لي إنّها ستبقيها عندها، لأنّها ستكون في حالٍ أفضل بصحبة أمّها وأختها. وهكذا احتفظتِ لنفسكِ بكلبتنا، وصارت لك، كما كنتِ تفعلين دومًا مع كلّ ما تحبّين ومن تحبّين؛ تسرقين منهم حياةً لتمنحيهم أخرى أكثر رحابةً وحيويّة ومرحًا من كلّ ما عرفوه سابقًا أو ما قد يعرفونه لاحقًا. والثمن الباهظ: أنْ يبقوْا تحت رقابتك الصّارمة، سجناءَ حبٍّ لم يكن في أيّ لحظةٍ، على الإطلاق -كما كنتِ تقولين دائمًا- حبًّا أعمى. إلاّ مع الكلاب ربّما، ومعها فحسب. فقد بقيتْ باتوم حيّةً بعد موت أمّها وأختها. وفي اليوْم الذي قبلتِ فيه، دون أيّ احتجاج، أنْ نأخذها لأنّها لم تَعد قادرةً على البقاء معك، فَهمتُ أنّ النهاية قد أوشكت. فأنْ تكوني على استعدادٍ للتنازل عن كلبتكِ، يعني أنّك كُنت على استعدادٍ للتنازل عن كلّ شيء، وأنّنا قد وصلنا بعد سنتين من السقوط المتواصل إلى قعرَ الهاوية. في ذلك المساء، حين كانت يدُكِ ما تزالُ في يدي، باشرتُ إجراءاتِ دفْنك في مقبرةِ «بورت بيغات». حضرتْ باتوم جنازتَك وكانت الكلبَ الوحيد من بين الحاضرين، وضع لها غيليم ربطةً سوداءَ في عنقها -وهي إحدى أفكاره الفريدة- وقد تصرّفتْ مثلما يليق بسيّدة. لم تستلق على الأرضِ متمارضةً كالعادة، بل جلستْ في الظلّ وقورةً جدّية، بربطة عنقها السوداء، إلى جوار غيليم ببنطاله الجينز القديم وقميصٍ مفتوحٍ قليلًا أعلى بطنه، كان قد كواه خصّيصًا لهذه المناسبة. أعتقد أنّ مظهرهما كان سيروقك، وأنّك كنت ستقتربين لتجلسي

بجانبهما -أنت التي لم تكوني تحتملين الحماقات أيضًا- مُسندةً يدكِ إلى رأس كلبتك، تتفرّجين على جنازتك الصامتة. ولا أدري، فربّما قد فعلتِها حقًّا.

- كما ترَيْن يا بلانكيتا، لقد أحسنتُ تغذيتَهما. أليس ذلك صحيحًا يا أولاد؟

أومآ موافقيْن، بحسب ما لُقّنا.

- أليس صحيحًا أنني لم أطعمكما البيتزا المجمّدة ولا المعكرونة ولا أيّا من هذه السّموم التي تطعمكما إيّاها أمّكما؟

أومأ الاثنانِ نافييْن.

- بلى يا أميّ! لقد تناولنا أشياء رائعة، قال نيكولاس أصغرهما.

- يسعدني هذا كثيرًا.

- بالمناسبة، هل عندكِ علمٌ بأنّهم حظروا علبَ المعكرونة المُصنّعةِ مسبقًا؟ نعم هذه التي تتناولانها! الآن بات عليكِ أنْ تشتريها من السّوق السوداء. قال غيليم. وأخذَ يضحك.

حدّقتُ فيه بكرهٍ وسرعان ما أفلتت مني ضحكةٌ.

- كما أنّهما كانا يذهبان إلى المسبحِ، كلّ يوم. متى كانت آخر مرّة اصطحبتِهما فيها إلى المسبح؟

- لم يحدث هذا قطّ! قال الولدان معًا متعجّبين!

ابتسمَ غيليم ابتسامة المُنتصر.

- وفي المسبح الذي ذهبنا إليه مع غيليم يبيعون رقائق الجانشيتو[1]. كما أنّهم أعدّوا مشروب جن-تونيك خصيصًا له.

أومأ غيليم إليهما بيده حتى يصمتا.

- جن-تونيك. بالطبع، أيّ هراء. أفترضُ أيضًا أنّهم جلبوا رقائق الجانشيتو من أحد المنابتِ الطبيعيّة!

- على كلّ حال، لنتحدّث بجديّةٍ الآن، فالأطفال يروقهم جدًّا أن يكونوا في الهواء الطّلق، ولذا فليس لديكِ ما تفعلينه هنا. هذه المدينة لا تُطاقُ في الصّيف، حسنًا، إنها لا تُطاق طوال السنة في الواقع. لماذا لا تقصدون كاداكس لبضعة أيّام؟ ستكونون بخير. والقاربُ ينتظركم هناكَ في البحر.. أليس كذلك؟

- بالطبع، التوروت[2] في الماء. وأميّ فعلتْ ما يلزم.

يا لك من مجنونة يا أميّ، يا لك من مجنونة! أحقًّا كنت تظنّين أنّكِ قادرةٌ على الإبحار على متن القارب؟ ماذا سيحدثُ للبحرِ إن غبتِ عنهُ قليلًا، هل سيختفي؟ أم تُراه سينطوي على نفسه إلى أنْ يصغرَ جدًّا ويصيرَ مثلَ فوطةٍ مطويّةٍ بعنايةٍ، بوسعكِ أنْ تدسّيه في جيبك؟

- ولكن هذا رائع. لا بدّ من أنّها تريدُ أنْ نستمتع بوقتنا هناك.

رافقتُه حتّى الباب. ربّت على كتفي عدّة مرّات:

---

(1) اسم نوع من رقائق البطاطا.

(2) اللّقب الّذي يطلقونه على قاربهم.

- تشجّعي! هيّا. سنَمضي الأسبوع القادمَ إلى كاداكس. اتّفقنا؟ وسترين، سنكون بخير وسلام هناك.

4

لعلّ واحدةً من أفضل الطّرق لاكتشافِ الزوايا السّريّة في مدينتِك -ليست السّريّةَ من النّاحية الرومانسيّة، بل تلكَ التي لا يمكنُ أنْ تخطرَ على بالِ أحد-، هي أنْ تقعي في غرام رجلٍ متزوّج. هذا فقط ما يفسّر وجودنا في بادالونا[1] -أعتقد أنها كانت بادالونا- حيثُ تناولنا فطائر رديئةً وجدناها لذيذةً جدًّا، في حانةٍ قذرةٍ بدت لنا أجمل ما في الكوكب، وتواعدنا بأنْ نعود إليها قريبًا، وكنّا في قمّة السعادةِ والبهجةِ كما لو أنّنا في فندق ريتز. كانت قد مضت أسابيعُ لم أرَ فيها سانتي. أيْ منذ وقتٍ طويلٍ قبل وفاتكِ.

أمّا في ما سبقها من أسابيع، حينَ كنُتِ في سريرك، تصارعين المرضَ والجنون بضراوةٍ ودون جدوى، فقد كنتُ أنا -حينَ لا يستبدُّ بيَ الحزن أو التّعب- في المكان نفسه أصارعُ دون جدوى وبضراوةٍ أحيانًا، كي أثبتَ لنفسي وأُثبتَ للعالم أنّني مازلتُ حيّة. إنّ نقيضَ الحياةِ ليس الموتَ بل الجنس. فكلّما كان مرضُكِ يتوحّشُ ويستحكم، كانت علاقاتي الجنسيّة تغدو أيضًا متوحّشةً مستحكِمة. لكأنّ المعركة ذاتها، معركتُك، كانت تُخاضُ في كلّ

(1) إحدى بلديّات مقاطعة برشلونة.

أسِرّة العالم. نحنُ اليائسين نمارس الجنس بسبب يأسنا. وهذا بات معروفًا. ها قدْ ولّت الصّباحاتُ التي كنت أفتحُ فيها عينيّ، وحيدةً أو برفقة أحدهم، وأقولُ لنفسي بسعادة: العالمُ أصغرُ قليلًا من غرفة نومي. كنت أشعر، أحيانًا، أنّنا كنّا نتحوّل، أنا وأنتِ، إلى شجرتيْنِ مُتيبّستيْنِ قابلتيْنِ للقصف، رماديّتيْنِ كالأشباح، وعلى وشكِ أنْ تصيرا غبارًا. لكنّني حينَ أخبرك بذلك تطمئِنيني نافيةً، ومؤكّدةً لي أنّنا أقوى شخصيْن عرفتِهما في حياتك، ولا ريحَ تقوى على اقتلاعنا مهما عتتْ.

كانَ سانتي يرتدي بنطالَ الجينز القديم جدًّا، ذا اللّون الأحمر الحائل، وهو المفضّل لدي، وسترةً كاكيّة اللّون كنّا قد اشتريناها معًا منذ زمن طويل. أعتقد أنّه يرتديهما ليثير إعجابي، وكتميمةٍ، أيضا، في وجه العواصف التي غالبًا ما تُهدّم علاقتنا. حين رأيته يتجاوز السيّارات منتصبا فوق درّاجته، ومتّجها نحوي كالسّهم، وكأنّه كان في العشرين الأولى من العمر، لا في العشرين الثانيّة، ببنطاله الجينز الأحمر البالي، وجسمهِ الأسمر المكتنزِ المشدودِ، حيث العَضلات في جزئه الأسفل أكبرُ مما هي عليه في جزئه الأعلى بفضل رياضتيْ التزّلج وركوب الدّراجات، ويديه الصّغيرتيْنِ المُكتنزتيْن والمكدومتيْنِ في أغلب الأحيان كيَدي العامل -حينَ رأيته على هذه الهيئة- أخذ قلبي يخفقُ كما في كلّ مرّة. وأعتقدُ أنّ هذا هو سبب تسارع نبضي، أكثرَ فأكثر، كلّما رأيته مجدّدا. كنتِ، دائما، تقولوين لي بشيءٍ من القلقِ المُفتعل: «مشكلتك هي حبّك للرّجال الوسيمين». لكنّي أعتقد أنّه في أعماقك كانت تلك الخِصلة تروقكِ، تلك الخِصلة الذّكوريّة الطفوليّة

جدّا، المتمثّلةُ في تفضيلِ شيءٍ يتسّم بالخفّة، مرهونٍ للصّدفة، وبلا جوْهرٍ -مثل المظهر الجذّاب- على السّلطة والذّكاء والمال.

شربنا بعض كؤوسٍ من البيرّة، ثم قرّرنا الذهاب لتناول شيءٍ على عجل. إذ لم نلتقِ منذُ وقتٍ طويلٍ وكنا متلهّفيْن لأنْ نكونَ معًا. سرحتْ أيدينا دون أن نشعر، لامستُ خصره، ولمس كتفي، داعبَ خِنصري حينَ أشعلَ ليَ السجارة، وبقينا طيلة ذلك الوقت على مسافةٍ أقربَ بخمسة سنتيمترات مما يُعدُّ ملائمًا بين صديقيْن. أخذنا نُفتّشُ في الأزقّة عن مكانٍ هادئٍ معزولٍ، بعيدًا عن الشّمس، وحينَ عبرنا نفقًا دفعني نحو الحائط، قبّلني ودسّ يده في بنطالي. إنّ قوّة الرّجالِ الجسديّة يجبُ ألاّ توظّف إلاّ في منحِنا اللّذة، في اعتصارنا حتى آخر قطرةٍ من ألمٍ أو خوفٍ فينا. مرّ مُراهقٌ يحملُ حقيبةً على ظهره ورمقَنا بطرْف عيْنه متواريًا وحاثًّا الخُطى. كِدْتُ أنسى فوضى القُبلِ الأولى والاندفاع وما لحقه من كَدماتٍ وكلّ ما سبقَ اللّحظةَ التي وصلنا فيها إلى الإبطاء والسّكون والحركاتِ الدقيقةِ دقّة حركات الجرّاح، حينَ انتقلنا من ممارسةِ الحبّ بالجسدِ وحده إلى ممارسته بالعقل أيضا.

- سيقبضون علينا بتهمة الفعلِ الفاضح. همستُ في أذنه.

أخذ يضحك، وابتعدَ عدّةَ سنتميتراتٍ آلمتني للغاية، وباعتناءٍ كبيرٍ عدّلَ بنطالي وقميصي، كما لو كنتُ بنتًا صغيرة. من المؤكّد أنّه يفعلُ الشّيء ذاته مع صغيراته حينَ يساعدهنّ في ارتداء ملابسهنّ.

- ربّما نأتي إلى هنا ذات ليلةٍ، ونمارسُ الحبّ مثلَ مُراهقيْن. قلتُ له.

- هذا ممكن بطبيعة الحال.

- وسأرتدي تنوّرةً.. سيكون الأمر أسهل.

أمسَكَ يدي.

- سنذهبُ لنتاول شيء، أيّتها الخليعة!

- لا شيءَ يعدِل ممارسةَ الحبّ عموديًّا -الكلّ يعرف ذلك- أردفتُ قائلةً.

فركلني في مؤخّرتي.

تناولتُ كأسَ نبيذٍ أبيضَ، كان يذوب فيه مكّعبُ ثلجٍ أضافه لي النادلُ اللّطيف فورًا ودون أسئلةٍ حينَ أخبرتهُ أنّ كأس النبيذ لم يكنْ باردًا بما يكفي، فيما كان سانتي يثرثر مع صاحب الحانةِ ويداعبُ ركبتي. إنّ الرّجلَ الذي لا يكون لطيفًا مع النّدل، لا يكون لطيفًا مع أحدٍ، وبالتالي لن يكون لطيفًا معكِ، قلتُ لنفسي. شكره بحرارةٍ على معجّناتِ الفطر التي كانت مُجمّدة بلا شكّ، ونظر إلى فتحةِ قميصي مبتسمًا.

- هل أخبرتُكَ من قبلُ بنظريّتي القائلةِ إنّ الرجال إذا كانوا مهووسين بالطعام فلأنهم لا يمارسون الجنس بما يكفي؟ -سألته- وإنّه بفضلهم تزدهرُ كلّ المطاعم الفخمة في هذه المدينة؟ هل لاحظت بأنّها تعجُّ دومًا بالأزواج من ذوي الأعمار المتوسّطة. هم، بساعاتهم التي لا تقلّ فخامةً عن سيّاراتهم، يتحدّثون عن وصفةِ الفطائر، أمّا هنّ فيَرْنِينَ إلى البعيدِ بهيئاتٍ

متأفّفةٍ، أو يحسبنَ السّعراتِ الحراريّة.

- وهل تعرفينَ نظريّتي القائلةَ إنّك عندما ترغبُ في ممارسةِ الجنسِ فهذا يعني أنّك ترغبُ في ذلك وحسب؟

- لم تخطر ببالي إطلاقًا. لكن تبدو معقولة.

أمسكني من تحتِ إبطيّ بكلتا يديه كما لو كانَ مِشدًّا إنسانيّا وضغط حتّى كادت أصابعه تتلامس.

- كيف لجسدٍ بهذه الرّقةِ أنْ يحملَ تلّتين كهاتيْن؟

- ترى صديقتي صوفيا أنّ الصدور المكتنزة مزعجةٌ، وتقول إنّه يُفترضُ بها أنْ تكونَ كالأعضاء الذكريّة؛ تتضخّم حينَ يتطلّبُ الأمر ثمّ تتقلّص وتعودُ إلى حجمها المعقول؛ أيْ تريدها صدورًا قابلةً للانكماش.

فأخذ يضحك.

- صديقاتك معتوهات. وأنتِ كذلك.

ثم طلب من النّادل كأسيْن إضافيّين. شعرتُ أنّني أفرطتُ في الشرب. وقد نفدتْ الزجاجةُ أو كادتْ، وأَعتقد أنّها كانت ملأى عند وصولنا. قبّلني ضاغطًا بكفّيه على وجهي، كما لو كنتُ سأهرب منه. ثمّ طلب مزيدًا من الفطائر. لم أتناول منها شيئا. وقال للنّادل متنهّدًا وبنبرة قلقة:

- إنّها لم تأكل.

- تفضّلي سيّدتي، تناولي شيئًا!

عضضتُ نصف فطيرةٍ وشربتُ الكأس حتّى آخره.

- نخبَنا -قال- في صحّتنا.

- في صحّتنا.

وبقيْنا صامتيْن للحظة، نتبادلُ النّظرات.

- حياتي مقرفة، وأنا محطّم. همس فجأةً.

- وأنا كذلك. أجبته.

وأخذتُ أضحكُ ضحكتي التي يشبّهها غليلم بضحكة الضبع. وكان قد علّم الولديْن كيف يقلّدانها تمامًا، ضحكتي العصبيّةَ كما يسميّها الطبيبُ النّفسيّ.

- كيف هو الحال في عملك؟

لم يدفع لنا الشّركاءُ منذ ثلاثة أشهر. ما من مكتبِ هندسةٍ في هذه البلاد يعمل، فلم يعُد يُشاد أيّ مبنًى فيها. ولا نعرفُ ماذا سيحدث.

- أفهم ذلك، يا لها من مصيبة!

- وفي هذه الفترة، حتى لو أردتُ الانفصال، فلا أستطيعُ، إذ لا أقدر على إيجار شقّة.

هذا دليلٌ آخر على الانتصار المُحتّم للنّضال من أجل المساواة بين الجنسيْن، وتأتي أهمّيته تحديدًا من أنّه جعل الرّجال يصبحون مثلَنا أكثر فأكثر وليس العكس. فلم يعد الرجال، أيضا، يستطيعون الانفصال، خشيةَ أنْ يفقدوا امتيازاتٍ معيّنة. فكّرتُ بشيء من السّوداويّة.

- كما أنّني لا أستطيع ممارسةَ التزلّج من الآن فصاعدًا. أضافَ بسذاجةٍ.

- لا! هذه ستكون كارثةً حقيقيّة!

- يا لك من شرّيرة!

ألتقي بسانتي منذ أكثر من عاميْن. ولم أرغبْ، إطلاقا، في معرفة شيءٍ عن زوجته، من باب الذّوق، والاحترام، ومن باب الخوف أيضًا. وأرى من الأفضل، عمومًا، ألاّ نعرفَ إلاّ الحدّ الأدنى عن الآخرين لأنّهم، عاجلًا أم آجلًا، وفي كلّ الأحوال، سيظهرون لنا على حقيقتهم، وليستْ سوى مسألة وقت، وقتٍ قصير، وما علينا في الأثناء إلاّ أنْ نفتحَ أعيننا وآذاننا جيّدًا.

- وددْتُ لو كنتُ إلى جانبكِ في الجنازة.

- هيّا، لنذهبْ! قلتُ وقد تركتُ مقعدي.

وجدْنا فندقًا لطيفًا إلى حدّ مّا، قديمًا وحميميًّا، ويطلُّ مباشرةً على البحر.

- أيعجبك؟ هل يبدو لك جيّدًا؟

- نعم، ممتاز.

طلب غرفةً مُطلّةً على البحر من أجلِ القيْلولة. فيما شرعتُ أنا أفكّ أزرار قميصي. حملقتْ موظّفةُ الاستقبالِ فينا، ثمّ تابعت الطقطقة على الحاسوب. طلبنا جِنْ-تونيك في انتظار أنْ تَجْهز الغرفة وخرجنا إلى الشّارع. كان الشّاطئ شبهَ خالٍ من البشر. لم يكن هنالِك سوى

بعضِ الأجسادِ المُبعثرةِ تحتَ الشّمس، وقد بدتْ بشعةً جدًّا تحت ضوْء الظهيرة، وفي غياب الخصوصيّةِ والاختلاط الكبير. إنّ الجسدَ الواحدَ، مهما بدا متعبًا ومريضًا ومنهارًا، يبقى مُحتفظًا ببهائه ومثيرًا للمشاعر. لكنّ مائةَ جسدٍ معًا تحت الشمس لا يمكنها أنْ تكون كذلك.

فككْتُ زرّيْن آخريْنِ من القميص. وصعدنا إلى الغرفة، كانت بسيطة ونظيفة، جدرانُها بيضاءُ بسريريْن مُحتشميْنِ ومنفصليْن، وُضِعَت فوقهما ملاءتانِ مموّجتانِ بلونٍ أزرق يلائم لون الستائر، مع لوحتيْنِ لسفينتيْنِ شراعيّتينِ معلّقتين فوق طاولة كتابة صغيرة.

فأخذتُ أضحك.

- سريران منفصلان! أرأيت؟ هذا هو انتقامُ موظّفة الاستقبال من المشهد الذي رأته في الأسفل.

- اللّعنة عليها.

لكنّها، على كلّ حالٍ، غرفةٌ مُطلّة على البحر، ومن الشّرفة، ينفذُ إلينا البحرُ والأفق. أمّا أجسادُ السابحينَ، المتحوّلةُ إلى نمْلٍ، فقد استعادت كرامتها. لا يستطيعُ سانتي، المهندسُ المعماريّ حتّى النّخاع تركَ مكانٍ على حاله إنْ كانت هنالك فرصةٌ لتحسينه، مهما ضؤلتْ. أخرجَ أحد الفراشيْنِ إلى الشّرفة، ومدّدني عليه ثمّ أخذ يخلعُ عنّي ملابسي. كان الضّوءُ شديدًا حتّى أنّني كنتُ أراه بمشقّةٍ. أغمضتُ عينيّ وبدأ رأسي في الدوران، فتحتهما محاولةَ التّركيز في قُبلاته التي كانَ يَصّاعدُ بها ببطءٍ من ساقيّ نحو الأعلى، لكنّني أحسستُ بدوارٍ شديدٍ وكل ما أردتُهُ في تلك اللحظة هو أنْ يُحضرَ لي كوب ماء.

- أراكِ شاحبة جدًّا! هل أنتِ بخير؟ سألني.

شربتُ جرعتيْنِ وبدأتُ أتقيّأ، حاولتُ النهوض لكنّ ساقيّ لم تُسعفاني، رافقني إلى الحمّام. وبقيتُ أتقيّأ حتّى لم يتبقّ في معدتي أيُّ شيءٍ صلب. وبقيتُ للحظاتٍ بعدها، أتقيّأ سائلًا فحسب. ورغم إخراجي كلّ الكحول، ظلّ جسدي يحاولُ أنْ يلفظَ شيئا آخرَ بعدُ، جسدي ذلك الجنّة المفقودةُ الأخرى. وأخيرًا تمالكتُ نفسي. رأيتُ صورتَنا في المرآة، جسدي، مثلَ شبحٍ رماديٍّ بعيْنيْنِ زجاجيّتْن، ومن ورائي، سانتي راكب الدرّاجاتِ والمتزلّج، ببنطاله الجينز الأحمر، سانتي الذي بوسعه أنْ يشربَ الكحول ويتعاطى المخدّرات بلا حدودٍ دون أنْ يخسرَ بُنيته القويّة، حتى وإنْ احتاج بعدها إلى عدّة منشطاتٍ وباتَ لا يقدرُ على النّوم إلاّ إذا دخّنَ الحشيش أو تناول قرصًا منوّمًا. لو لم تكنْ حالتي سيّئةً إلى ذلك الحدّ، لوجدتُ نفسي مُغريةً جدًّا. إنّني مولَعةٌ بجسدي، هذا المُتناقض، الليّن العظميّ، المفتقر للكمال والتناسُب. أدلّلهُ، أتحسّسه طويلًا، أمنحه كلّ ما يطلبُ منّي، أتبعهُ إلى كلّ مكان، أنقادُ له بسلاسةٍ، ولا أعارضهُ أبدًا. إنّه نقيضُ المعبد. لقد حاولتُ -ومازلتُ أحاول- دون جدوى، أنْ أجعلَ عقلي معبدًا. لكنّ الجسد كانَ حاضرًا على الدّوامِ، حديقةَ ملاهٍ جذّابةً.

- هل تشعرينَ بتحسّنٍ؟

بلّل منشفةً ومرّرها على جبيني وعُنقي. وناولني ملابسي.

- قليلًا.

- نسيتُ ما يفعلهُ بكِ الكحولُ عندما تكون معدتك خاوية..
كنتُ أتوقُ لرؤيتك وحسب.

- لا تقلق، أنا السبب. كان كأس الجين-تونيك الأخير، فكرةً سيّئة. إن لم أمتْ هذه الليلة، فسأكون غدًا، على ما يرام.

وضع سانتي درّاجته في سيّارتي، ورافقني إلى البيت، فتحتُ نافذة السّيارةِ وأغمضتُ عينيّ. كنتُ مُنهكةً، وأردتُ أنْ أنام فحسب. وحينَ وصلتُ إلى باب البيْت، ودّعني بقبلةٍ خاطفةٍ على الشفتيْن واعتذر متلفّتًا حولْه:

- لي في هذه المنطقة كثير من الزملاء. قد يراني أحدهم. وقبل أنْ ينصرف منسلاًّ كالأفعى أردفَ قائلًا: سأقصدُ كاداكس لبضعةِ أيّامٍ مع عائلتي تلبيةً لدعوةِ بعض الأصدقاء. أتمنّى أنْ أتمكنّ من الهربِ ولو للحظةٍ كيْ ألتقي بك.

أوصدتُ البابَ وصعدتُ الدرجاتِ بأقصى سرعة. فقد شعرتُ بأنّني سأتقيّأ من جديد، وهرعْت إلى الحمّام.

5

كانَ مدخلُ بيتي مكتظًّا بالصّناديق. فساعدتني الخادمةُ على دحْرها إلى الزاويةِ اليسرى؛ ستّ طبقاتٍ من الصناديق كادتْ تطولُ السّقف، فضلًا عن تلك التي تعودُ إلى فترة انتقالي إلى البيْتِ الجديد، قبل عامين، ولم أفتحها حتّى الآن. حينَ أتيْنا للعيشِ هنا، أخذنا نفرّغُ الصناديق واحدًا تلو الآخر حتّى لم يعد هنالك مُتّسعٌ لدبّوسٍ آخر أو كتابٍ أو لعبة، فتوقّفنا. أمّا بقيّةُ الصّناديق فقد ظلّتْ في الطابق الأرضي، في انتظار أنْ ننتقل إلى شقّة أوسع. لم أعد أتذكرُ الآن، ما الذي تحويه، لكنّني أفترضُ أنّها كتبٌ. كنتُ أبحثُ أحيانا، عن شيءٍ مّا، فلا أجده أبدًا. لا بدّ من أنّني إنْ فتحتُها ذات يومٍ، بعد عامين أو عشرين، سأعثرُ على كنوز كثيرة.

صناديقكِ مليئةٌ بالكتب وأواني المائدة وفناجين الشّاي ومفارش الطاولات. لقد شقَّ عليّ فِراقُ أشيائكِ كثيرًا، خاصّةً تلك التي أعرف أنّك تحبّينها أكثر من غيرها. كان يخطر لي في بعض الأيّام، أنْ أرميَ كلّ شيء. وسرعان ما يتملّكني النّدمُ فأقرّرُ الاحتفاظَ حتّى بأصغر قطعة، ثمّ أعودُ بعدَها بثلاث ساعاتٍ لأفكّر في إهدائها برمّتها إلى الآخرين. أعتقدُ أنّني كنتُ قد بدأتُ أحسمُ أمري وأعرفُ جيّدًا على أيّ مسافةٍ منكِ أريدُ أنْ أعيش. وهذه معادلةٌ صعبة، فالإبقاءُ على

مسافةٍ مع الأحياءِ أسهلُ بكثيرٍ.

يوجدُ مشجبٌ ضخم إلى جانبِ جدار الصّناديق، كنّا نستخدمه في الحفلات كي يضع عليه المدعوّون أغراضهم، وعليه سترتُك الزرقاءُ الضّاربة إلى الرماديّ بخطوطها قرميديّة اللّون. هي قطعةُ الملابس الوحيدة التي بقيتْ لي منكِ. ولم تكن حالتها الجيدة سبب احتفاظي بها، بل رؤيتي لك ترتدينها آلاف المرّاتِ، ولأنّنا اشتريناها معًا، من متجركِ المفضّل. لم أقوَ على إرسالها إلى المصبغة. وأظنّ أنّ رائحتك ما تزال عالقة بها. ولم أجرؤ حتّى على ارتدائها، فهذا يخيفني قليلًا. إنّها مثلُ شبحٍ أغبرَ عَلِقَ به شعرُ كلب، يحيّيني كلّما عدتُ إلى البيت. مازلتُ أخافُ الأموات. لكنّني لم أشعر بالخوف حين رأيتك ميْتةً، وكان بوسعي البقاء، هناك، جالسةً إلى جوارك لقرون. وكلّ ما بدا لي هو أنّك لستِ هناك، وأنّ ضوء الصباحِ الذي كان يتسلل من النافذة لم يعقه شيء عن الانتشار في الغرفة وفي العالم. لم يبق منّا سوى رواسبنا؛ ملامحِ الألم على وجهك، والصّمتِ، والتّعبِ، ونوعٍ جديدٍ من الوحدةِ بلا أساسٍ، مثل بلاطاتٍ تنفتحُ، واحدةً تلو الأخرى، تحتَ قدميَّ حالما تلمسانها وتدعوني مرحّبةً بي. لو أنّ روحك، أو شيئًا من هذا القبيل، بقيَتْ حيّةً، لولّتْ هاربةً من هذه الغرفة الكئيبة، ولن ألومَها، فروحي أيضًا، كانت ستفعلُ الشيء ذاته.

- ما هذه السّترةُ المُقرفةُ المعلّقة عندك في الطابق الأسفل؟ سألَتْني صوفيا وهي تدخل إلى البيت.

كانت ترتدي ثوبا من ثياب الهبّيّين القديمة الخاصّة بأمّها، من

صوفٍ أبيضَ وحواشٍ حمراء، كانت قد حصلتْ عليه منذ مدّةٍ وأخذته إلى الخيّاطةِ فحوّلته إلى ثوبٍ جديدٍ وأنيق. تلبسُ صوفيا بعنايةٍ، واهتمامٍ بالتفاصيلِ باتَ نادرًا في زمننا -يبدو لي أنّ قلّةً من كبارِ السّنِ فحسب مازالوا يلبسون على هذا النّحو- وأبعدَ ما يكون عن زيّي الدّائمِ من بناطيلِ الجينز القديمة والقمصان الرّجاليّة. وقبلَ أنْ أُكلّمها للمرّةِ الأولى ذات مساءٍ على بابِ مدرسةِ أبنائنا، كنتُ قد انتبهت إلى تلك المجنونة غريبة الأطوار المتأنّقةِ إلى أقصى حدٍّ، والتي ظهرتْ ذات يومٍ وعلى رأسها قبّعةٌ ضخمةٌ من القشّ تقيها المطر. وفي اليوم التالي، كانتْ ببنطالٍ فوشيٍّ قصيرٍ من الصّوفِ فوق جوارب طويلةٍ سوداء، حدثَ بيننَا تواصلٌ ودّيٌّ، كذلك الذي يحدثُ، تمامًا، بين الفتيات المراهقات؛ تلكَ اللحظةُ التي لا تقعُ فيها على من يشاركُكَ رأيكَ في ما تحبّه أو تنفرُ منه، وفي ميلكَ إلى النّبيذ الأبيضِ وعدمِ أخذكَ أيّ أمرٍ على محمل الجدّ، فحسب، بل على مَن له الطريقة ذاتها، أيضا، -والنابعة غالبا من طبعه الشغوفِ ومن اجتيازه طفولةً آمنةً- في أنْ ينخرطَ في العالم وفي الناس، كليًّا.

- هذه سترةُ أمّي -قلت لها-. لم أرسلْها بعدُ إلى المصبغة؛ لأنّني في الحقيقة لا أدري ماذا أصنعُ بها. إنّها قطعةُ الثياب الوحيدة المتبقيّة لي منها.

حدّثتها عن آخرِ مرّة رأيْتُ فيها إلينيتا، ابنةَ مُربّيتي ماريسا، تلك المرأةِ الرّائعةِ التي كانت أمّي الثانية، وكانتْ قد فارقت الحياةَ قبلها بسنتيْنِ على إثرِ أزمةٍ قلبيّة. استقبلتْني إلينيتا -وقد استفحل فيها السرطان- بواحدٍ من الثياب المشجّرةِ التي كانتْ لأمّها. عرفتُه على

الفور، ووجدتُ من المنطقيّ أن ترتديَه ابنتُها، في اللحظةِ ذاتها التي بدتْ لي فيها معانقةُ الموتِ مشؤومةً ومُرعبةً. حينها، تذكّرت إحدى رفيقات المدرسة في سنواتٍ بعيدة -وكانت شقراء فارعةً- عندما أخذت تُريني في قاعةِ الريّاضة -قبل أن تنطلق للركض في مضمار السباق- زوجًا من الجواربِ الصّفراء يصلُ إلى ركبتيْها، وتخبرني بأنّهما لأبيها الذي كان قد توفّي بالسرطان منذ عهدٍ قريب. لم أكنْ أعرف ما يعنيه الموْتُ بعدُ، وبدا لي ذلك حزينًا جدًّا ورومنسيًّا (في المراهقة، كان يبدو الحزنُ شعورًا سريع التلاشي وبرّاقًا، مثل غيره من المشاعر، على الأقلّ بالنسبة إليّ). بعد مرورِ سنةٍ، وقد صرتُ في السابعةَ عشرةَ من العمر، تُوفّي أبي بالسرطان. ومذّاك والأمواتُ يتكدّسونَ في سلسلةٍ مُروّعةٍ وثقيلةٍ سأكون أنا، على ما أظنّ، آخرَ حلقاتها.

- أعتقدُ أنّ عليكِ إرسالهَا إلى المصبغة، ثمّ الاحتفاظَ بها في أعلى رفٍّ من خزانة الملابس. قالت إليسا. ومع مرور الوقت ستقرّرين ما ستفعلين بها. فلا شيء يستدعي العجلة.

كانت إليسا قد حضرت أيضًا، لتشاركني الغداء. لم يحدثْ في أيّ مرّة تقريبًا، أن اجتمع ثلاثتنُا معًا. فالثلاثيّ لا ينجحُ حتّى في الصّداقةِ.

- سأذهبُ فورا لإعداد الكوكتيل، سينعشك. أضافت صوفيا.

صوفيا خبيرةٌ في تحضير الكوكتيل، وغالبًا ما تتمشّى في المدينة وعلى كتفها حقيبةٌ من الخيْش، لونهُا هادئٌ وأنيقةٌ جدًّا، ومحمّلةٌ بكلّ ما يلزمُ من موادّ لإعداده. أحضرت إليسا السوشي. وأخرجْتُ بعضَ

شرائح الجبنِ الجافةِّ من الثلاجةِ وجلسنا إلى الطّاولة. شربنا نخب الحياةِ، ونخبنا ونخب الصّيف. باتَ الجميعُ، مؤخّرًا، يحرصون على الشرب في صحّتي وعلى الدعاء لي بمستقبلٍ لا أعرفُ إنْ كان سيأتي.

- حسنًا، يا صبايا، قلتُ، لقد قرّرتُ الذهابَ لقضاء عدّة أيّامٍ في كاداكس. جنسٌ ومخدّراتٌ وروك آند رول. منْ ستأتي معي؟

نظرتْ إليسا إليّ بوجهٍ قلِقٍ، أمّا صوفيا، فقد هللّت بحماس وفرحٍ قائلة:

- هو ذاك! سنذهب إلى كاداكس!

فيما بدأت إليسا حديثًا متحذلقًا حول تأثير المخدرات، وفرويد، والحدادِ، وشبحِ الأمّ، والمخاطر الكبيرة التي تنتظرني.

كانَ قرارُ الأولى أنْ تستمتعَ بالعالم، أمّا الثانية فقد قرّرت أن تعاني منه وتخضعه للتحليل.

- هل لاحظت أنها صارت تلبس على الطريقة الكوبية منذ أنْ بدأت تُرافقُ الكوبيّ؟ همست لي صوفيا.

- بالطّبع.

كانتْ إليسا ترتدي تنوّرةً قصيرةً بجزءٍ سفليٍّ أبيضَ واسعٍ وقميصًا مطبوعًا بدوائر حمراء، وتنتعلُ صندلًا بكعبٍ عالٍ. وكانت ضفيرتها طويلةً سوداءَ متماوجةً ومرْخيّة. وأظافر أقدامها مطليّةً بالأحمر. تَراها مفعمةً بالحيويّة وسعيدةً مثل طفلةٍ في الخامسةِ من عمرها. إنّنا نبدو، جميعًا، أصغر سنًّا حين نكون سعداء. لكنّ إليسا تحديدًا يمكنُ أنْ

تنتقل من خمسةِ أعوامٍ إلى خمسةِ آلاف عامٍ في دقيقتيْن، وتكاد لا تمرّ بالمنطقة الوسطى أبدا، فتصبحُ عجوزًا بوجهِ سنجابٍ متجعّد. خطرَ لي ذلك وهي تتابعُ حديثها بجديّةِ مذيعة الأخبار.

- بهذه المؤخّرة التي تمتلكها، فإنّ مصاحبتها كوبيًّا ما كانتْ لتتأخّرَ طويلًا. أردفت صوفيا بصوتٍ خفيض.

المشكلةُ -قلتُ في نفسي- أنّ تحتَ هذه المؤخّرةِ الكوبيّة الجميلة، أو بالأحرى فوقها، ثمّةَ عقلٌ يتّخذُ الفلسفةَ الوجوديّةَ الفرنسيّةَ مرجعيّةً له، لامعٌ وبارعٌ في التّحليل لا يكلّ أبدًا، ويعقّد لها الحياةَ بعض الشيء. فالمسكينةُ تحاولُ دومًا إقامةَ التوازن بين المؤخّرةِ الكوبيّة والعقل الفرنسيّ المتفلسف.

- تعالي رفقة الكوبي. قلتُ لها بعد أنْ انتهتْ من حديثها.

- اسمه داميان. أخبرتكِ بذلك ألفَ مرّة. قالت.

- آه، صحيح! داميان، داميان، داميان. أظلّ أنسى. سامحيني. لكنّه على كلّ حالٍ كوبيّ. أليس كذلك؟ وهو الكوبيّ الوحيد الذي أعرفه.

نظرت إليّ إليسا عابسةً، دون أن تنطق بكلمة.

كانت علاقتي مع صديقاتي، تلك المطبوعةُ بالشّغفِ تارةً وبالخصامِ تارةً أخرى، قد هدأت أثناءَ مرضِ أميّ الطويل. وكنتُ أسأل نفسي كمْ من الوقتِ ستستغرقُ لتعودَ إلى ما كانت عليه.

- آه! نعم! تعالا، تعالا! قالت صوفيا. وكيف حالك مع داميان؟

هل أنت سعيدة؟

- نعم، غير أنّه متطلبّ جدًّا من الناحية الجنسيّة، والحقيقةُ أنّ هذا يتعبني. أجابت إليسا.

إليسا قادرةٌ على تحويلِ أيّ موضوعٍ، بما في ذلك العلاقة الجنسية مع حبيبٍ، إلى شيء ذهنيٍّ وفكريّ، أمّا صوفيا فهي على خلاف ذلك، تحوّل كلّ موضوعٍ إلى شيءٍ خفيفٍ ومُبهجٍ لِمحيطها. لكلّ واحدةٍ منّا موضوعٌ أساسيّ، خيطٌ ناظمٌ، لازمةٌ، عطرٌ خاصٌ يلفّها، موسيقى جوّانيّة تصحبها دومًا، ذاتُ وتيرةٍ واحدةٍ، صامتةٍ أحيانًا لكنّها دائمةٌ وحتميّة.

- ومنْ سيذهبُ أيضًا ؟ سألت صوفيا.

- دعيني أفكّر! آه، نعم! زوجاي السابقان!

- ماذا؟ تعجّبتْ الاثنتانِ بصوتٍ واحد.

- ستذهبين مع زوجيكِ السّابقين إلى كاداكس؟ لا بدّ أنّكِ تمزحين. أليس كذلك؟ أتعتقدين بأنّ هذا طبيعيّ. قالت إليسا.

- لا أعرفُ إنْ كان طبيعيًّا. لكنّكما، أنتما اللّتان ظللتما تكرّران على مسمعي طوال اليوم نصيحة ألاّ أبقى وحيدةً، وأنّ عليّ البقاء محاطةً بالناس الذين يحبّونني. وأنا أعتقدُ أنّ أوسكار وغيليم يحبّانني.

- هذا رائعٌ جدًّا بالنسبةِ إليّ! هتفتْ صوفيا. فالطّبيعيُّ مُنفّرٌ في نظري. لنشربْ نخبَ الأشخاص غيرِ الطبيعيّين.

- في صحّة غير الطبيعيّين! هتفتُ، وتعانقنا.

ما إنْ تحتسي صوفيا كأسيْن إضافيّين، حتّى تشرع في تقبيل الشخص الأقرب إليها في الجلسة وفي التعبير عن مدى حبّها له.

- وسانتي ذاهبٌ إلى هناك أيضًا. مع عائلته. أردفتُ قائلةً.

نظرت إليّ صوفيا، أيضا، بارتياب هذه المرّةَ.

- سيكون الأمر ممتعًا جدًّا. وستريان.

نظرت إليّ كلتاهُما بعيونٍ اتسّعت من الدّهشة كأنها أطباق. فأخذتُ أضحك.

6

انطلقنا إلى كاداكس في رحلةٍ كانت دومًا أشبه بحملةٍ استكشافيّة. جلس إدغار، ونيكولاس ودانيال ابنُ صوفيا، في المقعدِ الخلفيّ رفقةَ أورسولا المربيّة. توليّتُ القيادة وأدّت صوفيا دور المساعد. أن أكونَ المسؤولةَ عن كل ذلك، مازال يبدو لي أمرا غريبًا وعبثيًّا بعض الشيء؛ أنا من حدّد ساعةَ الانطلاق، وأعطى التعليماتِ لأورسولا، واختار للأولاد ما يلبسونه، وقادَ السيّارة. خطر لي وأنا أنظر في المرآة العاكسة إلى الأولاد يضحكون ويتشاجرون معًا في آنٍ، أنّ قناعي سيُزالُ في أيّ لحظةٍ، وسأُرسَلَ إلى المقعد الخلفيّ معهم. أنا نسخةٌ مزوّرةٌ لشخصٍ بالغ، وكلّ محاولاتي للخروج من فسحةِ اللّعبِ أخفقت إخفاقًا ذريعًا. أشعرُ بها كنتُ أشعرُ به تمامًا، في السادسة من عمري. وأرى الشيءَ ذاته، الجروَ المُتقافزَ الذي يُظهرُ رأسهُ ويختفي من نافذةِ أحد الطوابق الأرضيّة، والجدَّ يمدُّ يده لحفيده، والرّجالَ الوسيمين بشاشات رصدْهم المضاءة على الدّوام، وبريق سِواري الرّنانِ حينَ ينكسرُ عليه شعاعُ الشّمس، والمُسنين الوحيدين، والأزواجَ الذين يتبادلون القبلَ في شغفٍ، والمتسوّلين، والعجائزَ الانتحاريّاتِ المُتحدّياتِ يجتزن الشارع بخطى سلحفاةٍ، والأشجار. كلّنا نرى أشياء مختلفة، وكلّنا نرى الشيء ذاته دومًا. وما

نراه يحدّدُ منْ نحنُ بكلّ تأكيد. و نحن نحبُّ، غريزيًّا، أولئك الذين يروْن ما نرى، ونتعرّفهم على الفور. استوقِفْ رجلًا في منتصف الشارع واسألْه: «ماذا ترى؟»، وستكشفُ لك إجابتهُ كلّ شيء، كما في حكايةٍ من حكاياتِ الجنّيات. إنّ ما نفكّرُ فيه ليس مهمًّا، ما نراه هو ما يُعتدُّ به. ولو قُيّضَ لي لأسلمتُ دون ذرّة تردّدٍ تاجَ الرّاشدِ البائس هذا، المصنوع من ورقٍ مقوّى وجصّ، هذا الذي أحمله على مضضٍ- وفي كلّ مرتينْ من ثلاثٍ يسقطُ على الأرض ويهوي متدحرجًا حتّى أسفلِ الشارع- مقابلَ أنْ أعودَ إلى المقعد الخلفيّ من سيّارة أمّي، مرصوصةً بينَ أخي برونو، وماريسا المربّيةِ، وابنتها إلينيتا التي كانت تقضي الإجازة معنا دومًا، وصوفا وكورينا كلبتي الداشهند، ولالي كلبةِ ماريسا الكانيش الضّخمة العاجّة بالبراغيث، الخرقاءِ الطائشةِ، التي كانت تكره كاداكس وتكره كلبتيْنا الـ teckels[1] المهذّبتينْ.

- يا أولاد، ما رأيكم لو اشترينا طاولةَ بينغ-بونغ ، نستخدمها في المرآب، في كاداكس.

وافق الجميع متحمّسين للفكرة.

- ولكنْ ينبغي توخّي الحذر حين يتعلّقُ الأمرُ بالكلاب وبطاولة البينغ-بونغ. إيه!

- لماذا، لماذا؟ سأل نيكولاس ودانيال بصوتٍ واحد. أمّا إدغار، فظلّ يلعبُ بهاتفه المحمول، ولم ينطق بكلمة، كما يليقُ بمراهق. لكنّني لاحظتُ أنّه منتبهٌ لما يدور حوْله. هكذا هو دائم التيقّظ.

---

(1) بالإنجليزيّة في الأصل وتعني كلاب الداشهند.

رويْتُ لهمْ كيفَ أُصيبت لالي، كلبة ماريسا المعتوهة، حينَ كانت في كاداكس، بنوباتِ جنونٍ مفاجئة، واندفعت هابطةً الدّرجاتِ مثل السّهم، فيما كنّا أنا وإلينا وماريسا، نلحقُ بها صارخاتٍ محاولاتٍ الإمساك بها، وما إنْ أوشكتْ على الوصولِ إلى المرآب، حتّى اندفعت في مهوى الدّرجِ الذي كان يصلُ ارتفاعهُ إلى حوالي أربعةِ أمتار، وإذ بها تحطُّ فوق طاولةِ البينغ-بونغ؛ حيثُ كانَ أخي وأصحابهُ يلعبونَ في سلام. مات الأولادُ المساكين من الرّعبِ حينَ رأوا كلبًا أسودَ ضخمًا يرتطمُ بسطح الطّاولةِ فهربوا فَزعين أمامَ عينيْ أخي برونو الغاضب، الذي أمضى الصّيفَ بلا أصحابٍ يلعبُ معهم البينغ-بونغ، وكانَ على قناعةٍ تامّةٍ بأنّني أنا التي أمرت لالي كي ترميَ نفسها عن قصدٍ على الطّاولة، حتّى أغيظه.

- لا شكّ أنّه كان محقًّا. قال إدغار وهو يرمقني بطرْف عينه. وعلى كلّ حالٍ، فإنّ الجدّة كانت تقولها لك: «أنتِ لئيمة يا بلانكا، لئيمة».

- الجدّة لم تقل ذلك يومًا. قلتُ كاذبةً.

- بل كانت تقوله في كلّ مرّةٍ تراك فيها.

- مجرّد مزحة، فالجدّة كانت تعشقني.

- هذا واضح. واضحٌ حقًّا!

كانت الجدّةُ مرعوبةً، لقد بدأت هذه المرأة التي لا تعرف الخوفَ، تعيش فيه حينَ أخذت تشعر بأنّ قُواها وعقلَها يخونانها، وقد انفضّ من حولها أصدقاؤها، والحاشيةَ التي كانت تحيطُ بها دائمًا. قالت لي

ذات يوم: «أتعرفين أنّه مِن أقسى الأمور على المرء حين يشيخ، إدراكهُ أنّ ما يحاولُ شرحه لم يعدْ يهمُّ أحدًا؟» وكذلك حينَ أدركتْ أنّ الوقتَ أخذ ينفد، وأنّ كلّ شيءٍ في طريقهِ إلى النّهايةِ ما عدا رغبتها المجنونة في العيش. ولم تكنْ الجدّة تستسلمُ أبدًا، كانتْ تخوضُ المعارك كلَّها وقد اعتادت الفوز بها. أعتقدُ أنّها لم تعترف بخاسرة اللّعبة إلاّ في آخر يوم. وحينَ كانتْ طريحةَ الفراشِ في المشفى الأخير الذي مازلتُ أراه في كوابيسي (وإنْ لم يكنْ بالوتيرة ذاتها التي كنتُ أرى فيها دار العجزةِ حيثُ أمضتْ شهرينْ من قبل، وحيثُ أدركتُ أنّ أفلام الأموات–الأحياء كانت واقعيّةً تمامًا وأنّ مخرجيها لم يخترعوا شيئًا)، قلتُ لها ألاّ تحمل همًّا، فقد كان هذا ثالثَ التهابٍ رؤويٍّ تُصابُ به، وإنّها ستتعافى. وقلتُ لها إنّني والولديْنِ بخيرٍ، وإنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام. نظرتْ إليّ دون أنْ تقول شيئًا، إذ لم تعد تقوى على الكلام (فلا أعرفُ أيّ نوعٍ من المُحتضرين هذا الذي يجدُ مزاجًا لنطقِ عبارة أخيرة، أحسبُ أنّه قد يكون من أولئك المنشغلين بما سيحدثُ في هذه الدنيا بعد موته؟ أو قد يكون سيلُ العباراتِ الأخير الذي يصدرُ عنه مجرّدَ هراءٍ من نوعٍ آخر) طفقتْ تبكي في صمتٍ، ودون أنْ تحرّكَ أيّ عضلةٍ في وجهها، شاخصةً إليّ ببصرها. ورأفةً بي، على ما أظنّ، قالتْ آنّا، صديقتُها المقرّبة التي كانت موجودةً في الغرفة لحظتها، إنّ الأمر عائدٌ، ولا شكَّ، إلى هواء المكيّف الذي هيّجَ عينيْها. لكنّني كنتُ أعلمُ أنّها تودّعني. لم أذرفْ ولو دمعةً واحدة، أخذتُ يدكِ برقّةٍ وقلتُ لك مجدّدًا ألا تشغلي بالَك، وإنّنا جميعًا بألف خير. قبل هذا بشهور، وحينَ كان موتُكِ أمرًا لا يخطرُ ببالي البتّة –ومازال–، كنّا في بيتك نتجاذبُ الحديث، وقد كنتِ

متوجّهةً لإحضار شيء من الحمّام، وكما يقولُ أحدهم «أريد معجون أسنان»، قلتِ لي، فجأة، دون أنْ تنظري إليّ: «لقد تشرّفتُ بمعرفتك». طلبتُ منك تكريريها مرّتينْ، وقد بات حبُّنا في ذلك الوقتِ مصدرَ ألمٍ لي، كنتُ أظنُّ أنّك لا تحبّينني، ولم أدر إنْ كنتُ ما أزال أحبّك. وإذّاك، طفقتُ أضحكُ وأقول لك لا تتفوّهي بترّهات. وبعد دقيقتَيْنِ عدنا نتشاجرُ من جديد. والآن أعتقدُ أنّك كنتِ تعرفينَ أنّ زمن نقاطِ الحذف التي لطالما كرهْتها، كان قد وصلَ إلى نهايته. وأنّ نقاطَ النّهايةِ قد بدأت، مثلَ خناجر، أو مثل أنابيبِ الأكسجين.

في الجهةِ المقابلة من الشارع. حيّتْنا إليسا، وكانت مع داميان في سيّارته، ملوّحةً بيدها في خفّة، نظرتُ إليها بشيءٍ من الحسد، أحسبُ أنّهما كانا يستمعان إلى الموسيقى -الموسيقى التي يريدانها هما لا تلك التي يريدها الأولاد-، ويتحدّثانِ ويفكّران في شؤونهما. أتصوّرُ أيضًا أنّ إليسا، التي لا أولاد لها، استطاعتْ أنْ تستحمّ وحدها، أو مع داميان، دون أنْ يدخلَ عليهما الولدُ مع مربيّته المبتسمة كي يسألا عن مكان الزيّ التنكريّ الصينيّ القديم، الذي كان يجبُ ارتداؤه للذّهاب إلى كاداكس، لأنّه في كاداكس «لا بدّ أنْ تأتيَ مرتديًا هذا الزيّ وإلاّ يحسن بك ألاّ تأتي». «لا نقاشَ في هذا»! أضاف نيكولاس. قلت «أنا عاريةٌ في حوض الاستحمام، ألا تريان؟ هيّا انصرفا من هنا». احتجّ نيكولاس على ذلك أمّا أورسولا فأخذت تضحك، وهي تقنية تلجأ إليها في كلّ ظرف. كانت حادثةٌ من هذا النّوعِ تزعجُ طليقي الثاني كثيرًا، في حين كنت أستظرفها.

- «الخفّة شكلٌ من أشكال الأناقة». «وإنّه لأمرٌ صعبٌ للغايةِ أنْ

تعيش بخفّةٍ ومرح». كنتُ أقول.

وكانَ يُجيبني:

- «إنّك تخلطين بين الخفّةِ والإهمال يا بلانكيتا. فبوسعِ أيّ كان أنْ يستغلّك».

وكي لا نستطول الرّحلة، قرّرنا أنْ نتوقّف في منتصف الطريق لتناول الطّعام في بيْت توم. وتوم هو والدُ دانيال. كان حبيبَ صوفيا في أيّام شبابِها، وظلاّ صديقين حتّى بعد أنْ انتهت علاقتهما. وحين رأتْ صوفيا أنّها تقتربُ، وحيدةً، من العمرِ الذي تشعر فيه، يوما بعد يوم، بصعوبة الإنجاب، قرّرتْ الذهاب لرؤيته وإخباره برغبتها في إنجاب طفل منه. ووافقَ توم، الذي كان قد تزّوج في الأثناء، وأنجبَ طفلتيْن ثمّ انفصل عن زوجته، وافقَ، مشدّدًا على أنّ الولد سيبقى في نهاية المطاف، ابن صوفيا، ابنها وحدها، وإنْ قبل أنْ يحمل اسمه وأن يراه من حينٍ لآخر. فقد صار له الآن بنتان، وهو منهمكٌ في الاعتناء بهما ولا يريدُ أكثر من ذلك. وقبلتْ صوفيا بالاتّفاق، ممتنّةً ومقدّرة قيمة تلك الهديّة التي منحها إيّاها، فيما استمرّت حياةُ توم كما كانتْ من قبل.

يعيشُ توم في بيتٍ مُتهالكٍ مُقامٍ وسط أرضٍ واسعةٍ جدًّا، خصّصها مأوى للكلاب ولتربية كلاب البيغل. كان من بين أحلامي، لو كنتُ شخصًا آخر، أنْ أعيش في الرّيف محاطةً بالحيوانات، لكن إذا لم توجد قاعة سينما قريبةٌ، ومتجرٌ مفتوحٌ على مدى أربع وعشرين ساعةً، والكثيرُ من الغرباء حولي، لضقتُ ذرعًا. ومع هذا فإنّ فكرة

الذهاب لمشاهدةِ الجراء وهي تَرضَع قدْ شدّتنا، أنا والأطفال، كثيرًا. كما أنّ فكرةَ تركَ الطريق إلى كاداكس والعودةَ إليها بعد وقتٍ، كانَت ترويحًا عن النفس غير مخطّطٍ له من قَبل. تؤلمني العودةُ إلى الطرقِ التي كنتُ أسلكها مع أميّ. «إنّ الموت، هذا اللّعين، يطردُنا من كلّ الأمكنة. ربّما علينا أنْ نستبقيَ لنا أحد جراء البيغل». هذا ما خطرَ لي ونحنُ نجتازُ الطّريق الترابيّ مسرعينَ، ذلك الطّريق الطويل الهادئ المعزول، المؤدّي إلى بيْتِ توم. في المدخل، ثمّة لافتةٌ مغبرّةٌ عليها صورُ كلابٍ خضراء اللّون متقافزةٌ، كُتب عليها «فيلاّ البيغل».

قرعْنا الجرس ولم يخرج أحدٌ، فتسلّق الأولادُ الشباك الحديديّة وأخذوا في الصّراخ «توم! توم!» سُمع في البعيد نباح، وفجأة، ظهرتْ مجموعةُ كلاب من كلّ الأعمار والسلالاتِ والحالات وكانتْ تعدو نحونا. يتحسّن مزاجي في كلّ مرّةٍ أرى فيها هذه الحيواناتِ المُبتكَرة والمدجّنة من أجلنا، والمعتادة على العيش حبيسةً في شُقق، وهي تستمتعُ ولو مؤقّتًا بحرّيتها، تلكَ الرّغبة الخالصة في الركضِ تحتَ الشمس بأذنيْنِ مشرعتيْن للريح، ولسانٍ متدلٍ وذيلٍ هائجٍ، وسعادةُ أنْ تكون حيًّا وحسب، وأن تقبلَ الهديّةَ من دونِ أنْ تطرحَ الأسئلة. اندفعتْ الكلابُ متجمّعةً على الطّرف الآخر من السّياج، وأخذ الأولاد يصيحون غير قادرينَ على كبحِ لهفتهم. خلْفَ الكلاب، شاهدنا صبيّينِ يقتربانِ مبتسميْن، بخطواتٍ واسعةٍ مُسترخية، كما لو أنّهما كانا يخطوان في حقل حنطةٍ عاليةٍ، مرتَديَيْنِ بنطاليْن باليَيْن، عيونُهما ناعسةٌ وقامتاهما ليّنتانِ كما هو معتادٌ في مرحلةِ الصّبا، ونظراتهما هازئةٌ بعض الشّيء كتلكَ التي نلحظها عند مشاغبي المدرسة، أولئك الذين

قد أمضوا وقتًا من عمرهم في الشارع. كنتُ أراقبهما باستمتاعٍ، وبشيء من الحسد أيضًا، وهما يمرّرانِ بينْهما الحشيش خِلسةً وينادِيانِ على الكلاب بأسمائها و يلهُوان معها. فتحا بوّابة السياج كي ندخل وقالا لنا إنّ توم في البيت، وإنّه استيقظ منذ لحظاتٍ ولنْ يتأخّر في القدومِ إلينا. استقبلتْنا الكلابُ بودٍّ، وبعدّة قفزاتٍ ولعقاتٍ ونبحةٍ واحدة سرعانَ ما كبحها أحدُ الصّبيّيْن. لم يسبق للأولادِ أنْ رؤوا من قبل، هذا العدد الهائل من الكلاب دفعةً واحدةً، لكنّهم بعدَ دقائقَ من التردّد انطلقوا يركضون في الحقل، ضاحكين صائحينَ والكلاب تتقافز من خلفهم. ثمّة واحدٌ من بينْها لم يتركني لحظةً؛ حيوانٌ هرمٌ أشعثُ يُذكّرُ على نحو غامضٍ بكلبِ رُعاةٍ ألمانيّ. وهو أوّل كلبٍ تقعُ عليه عينيّ. كان في آخر المجموعة، معزولًا عنها بعضَ الشّيء، حزينًا ومتعبًا. رآني أنظر إليه فدنا منّي.

كلُّ من اقتنى كلبًا يعرفُ جيّدًا أنّ الكلاب هي التي تختارنا، وليس نحن الذين نختارها. إنّ الأمرَ أشبهُ بذلك التعارفِ الذي يولدُ في أحيان قليلةٍ جدًّا بين شخصيْنِ، تعارفٍ صامتٍ خاطفٍ ويقينيّ. لكنّه مع الكلاب يدوم حياةً بأكملها. داعبتُ رأسه، وفي كلّ مرّة كنتُ أحاول سحبَ يدي كانَ يقرّب خطمه من ساقي ويدفعني عدّة دفعاتٍ خفيفة طلبًا للمزيد من الدّلال.

- ما اسمه؟ سألتُ أحد الصّبيّيْن.

- ري (الملك).

- حسنًا، أظنّ أنّه في لحظةٍ مّا من حياته، كان مَلكًا لأحدِهم.

- ابتسم لي الشابُّ الطّويلُ النحيل، وقرّبَ الكلبَ منّي، دون أنْ أطلب منه ذلك.

- توفّيَ صاحبُه بالسرطان منذ أشهرٍ وبقي هو هنا.

- انحنيتُ وداعبتُ رأسه من جديد.

أرى أنّكَ مازلتَ ملكًا، أتعلمُ ذلك؟ إنّنا نميّز هذا فيك من مسافةٍ بعيدة. آه! بقيتَ وحيدًا.. حسنًا، حسنًا، إنّه لأمرٌ مؤلم، أليس كذلك.

وربّتُّ مرّاتٍ على ظهره؛ شعره غليظٌ قاسٍ، شوكيٌّ قليلًا وأسودُ، وبطنه وأطرافه صَهباء. وله نظرةٌ عميقةٌ جديّة ويقظة كنظرة الكلاب الهرِمة والأشخاص المرضى. إنْ كنتَ تحبُّ الناس، فمن المستحيلِ ألاّ تحبّ الكلاب.

في البعيد، كانَ إدغار بهيئةِ مالك الأرض، يتفحّصُ شجراتِ التّين المحاذيةَ للمرجِ، المُثقلةَ بثمارٍ في تمام نضجها.

أعتقدُ أنّه صارَ الآنَ راشدًا جدًّا، وواعيًا بكلّ شيء، وجدّيًا ودودًا، وكتومًا مقلاًّ في كلامه، وشديدَ الحساسيّة والشعورِ بالمسؤوليّة، وقد بلغَ في ذلك كلّه مبلغًا لن يكون له مثيلٌ في أيّ مرحلةٍ أخرى من عمره. مازال في الثالثةَ عشرة من العمر، لكنّني بالطّبع لن أصل أبدًا إلى ما وصل إليه اليومَ من نضج. لعلّ الشعورَ الأسمى الذي يُمكنُ أنْ تشعره تجاه شخصٍ آخر هو الاحترام. إنّه أسمى من الحبّ أو العشق.

اقترب منّي داميان وطلبَ أن أمرّر له الحشيش خفيةً لأنّ إليسا لا تحبُّ أنْ يدخّن، بيْنما أخذت صوفيا تلاطف الشابّ الآخر الذي

كان يعتني بالكلاب. اتّضح أنّه رومانيٌّ ويتحدّثُ القشتاليّة بصعوبة. أمّا روجر، الذي كان يتحدّثُ معي، فهو كتلانيّ، وقد شرحَ لي فيما كنّا ندخّن، أنّهم لا يربّون الكلاب فحسب، إنّما يقدّمون، أيضًا، خدمة استضافةٍ لمن يسافرُ أو يذهبُ لقضاء إجازةٍ ولا يجدُ من يعتني بكلبه في غيابه. وفي هذه اللّحظةِ ظهرَ توم. ويبدو جليّا أنّه ارتدى ثيابه على عجل. فقد كان يلبس بنطالَ جينزٍ ممزّقًا.

- مؤخّرتكَ بائنةٌ من البنطال. هكذا حيّته صوفيا.

تحسّس الجزء السّفليّ من البنطال وأخذ يضحك. يتحدّثُ توم القشتاليّةَ كطفلٍ من برشلونة والكتلانيّة كفلاّحٍ من إمبوردا[1]. ورث شعره عسليّ اللون، وعيناهُ الزرقاوان الرومنسيّتانِ، عن أمّه الإنجليزيّة. وله بنية بعضِ الرّجالِ الجنوبيّين. جسدٌ مربوعٌ متينٌ، وكرش بارزة، ويدان قصيرتان غليظتان، وبشرةٌ سمراءُ متشقّقة بفعل الشّمس. وهو شخصٌ واضحٌ، ينظرُ مباشرةً في عينيْكَ حينَ يحدّثك. أفترضُ أنّ الكلاب هي من علّمته أنْ يكون كذلك. ضحوكٌ، وعمليٌّ ويعرفُ كيف يديرُ الأمور، يحبُّ الحيواناتِ والنساءَ ولعبة البوكر والماريغوانا. وكما تروي صوفيا، فإنّه يمتلكُ خلف حقلِ الكلاب أرضًا مزروعةً على امتداد عدّة كيلومتراتٍ، يستغلّها من بينِ منافعَ أخرى، كمتنفّسٍ للحيوانات.

قرّرنا الذهاب لرؤية الجراء قبل الغداء، اجتزنا حقلًا من التّين والزيتون ووصلنا إلى بنايةٍ كبيرةٍ، مقسّمةٍ في الأسفلِ إلى حُجراتٍ

---

(1) منطقة تاريخيّة تتمتّعُ بمناظر طبيعيّة خلّابة في كاتالونيا.

صغيرةٍ، بعضها خارجيٌّ وممتلئٌ بجراءٍ أخذتْ تتقافزُ وتركضُ حين سمعتنا مُقبلين. أمّا الحجراتُ الأخرى، تلك الخاصّةُ بالجراء حديثة الولادة، فإنّها تُطلُّ على باحةٍ داخليّة ظليلةٍ، أنقى هواءً وأهدأ جوًّا. وهي بعيدةٌ عن صخبِ الكلاب الكبيرة. كانَ يشيعُ في الأجواء شيء من الاحتفاليّة والدهشة كتلك التي يحدثها، دومًا، بزوغُ أيّ نورٍ جديد، إنسانيًّا كانَ أمْ حيوانيًّا. ذلك الشعورُ -المزيّفُ بالطبع-، بأنّك على وشك العثور، كاشطًا بأطراف أصابعكَ، على أصل كلّ شيء، على الغبطة الأبديّة. ويحسّ الأطفال بهذا: وَهَنُ الإناثِ التي وضعتْ حملها حديثًا، وسكونُها واستسلامها، وتيهُ الجراءِ وهشاشتها، عمياءَ بشعةً مثل فئرانٍ صلعاء، لكنّهم يلوذون بالصمت ولا يجرؤون على الدّخول. طلب إليّ ولدايَ أنْ نستبقيَ لنا أحدَ الجراء الكبيرةِ، ففكّرتُ للحظةٍ في اقتناء جروةٍ ومنحها اسمَكِ، لكنّني سرعانَ ما عدلتُ عن فكرتي وقلتُ لنفسي لا بدّ أنها وليدةُ الماريجوانا وأنّه ما كان عليّ أنْ أدخّن على معدةٍ فارغة. فقلتُ لهما أنْ يتمنّيا ذلكَ من بابا نويل.

ذهبنا لتناول وجبةٍ خفيفةٍ في فندقٍ صغيرٍ على الطريق. مكانٌ لطيفٌ وبسيطٌ، بلا أيّةِ مبالغاتٍ جماليّة، وحيثُ الطّعامُ جيّدٌ جدًّا، طبيخٌ بيتيٌّ كذلك الذي لم أحظَ به يومًا في بيْتي. وكما أخبرتِني ذاتَ مرّة، أنّكِ حينَ انقضتْ مرحلة الرّضاعة والعصائد، ذهبتِ لرؤية طبيب الأطفال الدكتور سالويدا الذي كنا نتردّد إليه -وكان طبيبًا نابغًا، وعالمًا جذّابًا ومُذهلًا، وكنتُ أخافه، وقد طردني ذاتَ مرّةٍ من عيادته لأنّني أخذتُ أبكي- كي تحدّثيه عن تغذية الأطفال وتوضّحي له أنّك لم تطبخي طيلةَ حياتك ولا تنوين ذلك أبدا. فقال

لكِ ألاّ تقلقي، وإنّه من حيثُ المبدأ، إذا توفّر الحليبُ أو أحدُ مشتقاته في الثلاجة، أو أيُّ نوعٍ من الفاكهة أو البسكويت، أو ربّما بعض شرائحِ الخنزير قليلةِ الدّسم، فسيسيرُ كلّ شيءٍ على ما يرام. هكذا أصبحنا، أنا وأخي، خبيريْنِ في أنواع الجبنِ الفرنسيّ قبل أنْ نصلَ إلى سنّ البلوغ، وكنّا نعلمُ أهميّة أنْ تكون في الثلاجةِ شامبانيا فرنسيّة. وكان يبدو لنا الأمر الأكثر طبيعيّة في العالم أن يقتصرَ العشاء في بعض الأمسيات، على كعكة الساتشا، حلوانا المفضّلةِ. لم يكن المَطبخُ في البيتِ يُستخدمُ إلاّ لتسخين الأكل إنْ كان لدينا ضيوف، أو لتُحضِّرَ فيه الخادمةُ الأرزّ المسلوق مع الكبد، تلك الوجبة المقزّزة التي طالما أعجبت كلابكِ قبلَ أنْ تُجبَرَ، كغيرها من الكلاب المُدجّنةِ، على أنْ تقتات على الطّعامِ المُجفّف فحسب. وفي كلّ الأحوال، فلا بدّ من أنّ الدكتور سالويدا كان محقًّا، فقد كبرنا طويلي القامةِ، قويّي البُنيةِ، وصحيحي البدن، وصرنا ذيْنكِ الشابّيْنِ الجذّابيْنِ المصقوليْنِ اللّذيْنِ يريان (ومازلتُ أنا أرى) أنّه ما من شيءٍ أكثر غرابةً ولذّةً من الطبيخ البيْتيّ، وكانا، حين يحلاّنِ ضيفيْنِ على أصدقائهما، وأمام النظرة الذاهلةِ والمُجاملةِ للمُضيفة، يهجمانِ على طبقِ العدس مع الأرزّ على الطريقة الكوبيّة، أو مع المعكرونةِ، كما لو كان أشهى طعامٍ في العالم.

بعد أنْ انتهتْ أورسولا والأولاد من الأكل، غطسوا في حوض السباحةِ، فيما خرجنا نحنُ لتناول القهوةِ على الشرفة. أحضروا لنا على الفور مشروب المقبّلات الراتافيا[1] في زجاجةٍ مع كؤوسٍ كي

(1) نوعٌ من مشروبٍ كحوليّ يُقدّمُ كمقبّلات في مدن البحر المتوسط في إسبانيا وإيطاليا وفرنسا.

نصبّه بأنفسنا. كان توم من روّادِ المكان وله فيه عادات. وقد حدّثنا أنّه بصدد المشاركةِ في مسابقة بوكر مهمّة.

- كانت أميّ مولعةً بلعب البوكر. قلتُ له.

- حقًّا؟ قولي لها إذن أنْ تأتي.

ألاّ يعلم أحدُهم أنّ أميَّ متوفّاة، كان بالنسبةِ إليّ أمرًا لا يصدّق، تمامًا مثل من لا يعلمُ أنّ الأرض كرويّة.

- لقد توفيّتْ.. مضى على وفاتها أربعةٌ وثلاثون يومًا.

نظر إليّ مندهشًا عابِسًا. كنتُ أرغبُ في الانفجار ضاحكةً ثمّ أقول له: «إنها مزحةٌ يا رجل! لقدْ خدعتُك! أميّ مازالت بخير وفي كامل صحّتها، ولا شيء يقهرها كما كانت دومًا».

- آسفٌ حقًّا، لم أكن أعرف.

- حاولتْ أنْ تعلّمني لعب البوكر مليون مرّة.

- حسنًا، لعلّي أنجحُ في تعليمك إيّاها.

- نعمْ، سيكون ذلك رائعًا.

لقد انفصلَ توم عن حبيبته مؤخرًّا؛ وهي، وفقًا لصوفيا، مجنونةٌ متخفّيةٌ تعيش في الجبال، وشاشة رصدها مشتعلةٌ على الدّوام. ثمّةَ رجالٌ لا يمتلكون شاشة رصد، أو أنّهم لا يكادون يستعملونها، إلاّ عند الحاجة فحسب، ثمّ يطفئونها على الفور. وثمّةَ آخرون شاشتهم مشتعلةٌ على الدوام، حتى وهم يغطّون في النوم، أو يصطفّون في

طابور المتجر، أو أمام شاشة الحاسوب، أو في قاعةِ الانتظار عند طبيب الأسنان، يدورون حولَ أنفسهم بجنونٍ، يبثّونَ الموجاتِ ويستقبلونها. وإنّ الحضارة تدومُ بفضلِ الفئة الأولى، والعالمَ بفضل الثانية.

- لماذا لا نذهبُ إلى السينما؟ اقترحت صوفيا، فجأة.

كنّا قد شربنا كثيرًا، فاستحسنّا، جميعًا، فكرةَ ألاّ نقودَ السيّارةَ قبل مرورِ ساعةٍ على الأقلّ.

- نعم، نعم، فلنذهب. -ثمّ توجّه إليّ بالحديث- نستطيعُ أن نجلس متجاوريْن ونلعب لعبة ملامسة الأيدي من تحت المقاعد.

ضحكنا. أُعجِبَ بي لكنّي لم أبادلهُ الإعجاب، ومع هذا فقد أخذتُ أغازله. وشعرتُ بأنّ العسلَ بدأ ينسكبُ جاريًا رقراقًا. كنّا مثل صغيريْنِ قد سرقا لتوّهما علبة سكاكر وخرجا مطروديْنِ من البقالة، مغشيًّا عليهما من الضحكِ والخوف معًا. ليس ذلك العسل الكثيف البطيء والمعتم الذي نكونُ في سبيله مستعدّين لدخول جهنّم، لكنّه في نهاية الأمر عسل. وهو الترياقُ ضدَّ الموت.

منذُ موتكِ، وقبلهُ بقليلٍ أيضًا، وأنا أشعرُ بأنّ الشيء الوحيد الذي بتُّ أفعله هو الذهابُ لتلقّفِ الحُبّ، وأنّني أتدبرّ أمري حتّى بأصغرِ كِسرةٍ منه أجدها في الطريق، وأتلقّاها كما لو كانت قطعةً ذهبيّة. أنا مدمّرةٌ تمامًا وأحتاجُ إلى من يسلبني حُطامي. كلّ شيء ينفعني، حتّى ابتسامةُ المُحاسِبةِ في المتجر، وغمزةُ عينٍ من مجهولٍ في الشارع، ومحادثةٌ عابرةٌ مع الشّاب صاحب الكشك، كلّ هذا أتشرّبه عن آخره، ولا شيء يكفيني، ولا شيء يصلحُ لشيء.

يروي الفيلم قصة صبيٍّ مات كلبُه بعدَ أنْ دهسته سيّارة، ثمّ بُعث من جديدٍ في وقتٍ لاحقٍ على يد صاحبه الشّاب، ثمّ يعودُ إلى الموْت ثمّ إلى الحياةِ لمرة أخيرة. جلسنا في صفّين، الكبارُ في الأمام والأطفال وأورسولا في الخلف. أخذ توم بيدي وبقينا على هذه الحال طوال الفيلم، يدي في يده، يقبّلها خِلسةً بيْنَ الحين والحينِ ويلامسُ عنُقي بشفتيْه، فأُسندُ رأسي على كتفه وأُغمض عينيّ لبضع ثوان. ثمّ يداعبُ رُكبتي، وأدعه يفعل، فقد بدا لي ذلك لطيفًا جدًا دون أنْ يكونَ مثيرًا. لعلّه من الضّروريّ أنْ نُبديَ ولو أدنى رغبةٍ في الأشياءِ قبل أنْ نحصل عليها. بكيْنا معًا في نهاية الفيلم وحاولنا إخفاءَ الأمر. كان هذا الفعل الأكثر تحضّرًا، الذي أُقدمُ عليه صحبة رجلٍ منذُ وقت طويل. استمتعَ الأطفالُ كثيرًا بالفيلم وصارت رغبتهم في اقتناء كلبٍ أكبر من أيّ وقت مضى. وبحلولِ المساء، عُدنا إلى بيْت توم. طلبَ إدغار الإذن لقطفِ بعض حبّات التين النّاضجة. كانت الكلابُ المهجورةُ تركضُ في جميع أنحاء المرْج دائسةً أشعّة الشمس الأخيرة التي تنفذُ خلالَ الأشجار والغيوم. دنا الكلبُ الملكُ ري منّي ليحيّيني بوقارٍ، ملكٌ قديمٌ، مخلوع وعاجٌّ بالبراغيثِ.

- لماذا لا تستبقينه؟ سألني توم. فهو كلبٌ جيّد. وأنتِ تروقينه. لا أستغرب ذلك.

- وهو كذلك يروقني. ولكن لا أدري، فكّرتُ في أنّ الأطفالَ، ربّما، سيفضّلون اقتناء جروٍ. لم يكن أيٌّ من الكلاب التي عشت معها لي حقًّا، فإمّا أنْ يكون لأمّي أو لزوجي. كانتْ أميّ تقولُ إنّني غيرُ قادرةٍ على رعاية كلب. في الحقيقة أنا معجبةٌ

بالعمل الذي تقوم به هنا، يجب أن يُرسَل عديمو الضمير الذين يتخلّون عن كلابهم، إلى السجن.

- شكرا لك. حسنًا، إذا رغبتِ يومًا في اقتناء كلبٍ، ها أنتِ تعرفين مكانه.

وقبل مغادرتنا، أعطانا كيسًا من البلاستيك مطويًّا ومعقودًا عدّة عُقد، فتحتْه صوفيا، وأخذتْ تضحك، ثمّ أطلعتني على ما بداخله.

- إذن فموضوع زراعةِ الماريغوانا كان صحيحا!

- خطرَ لي أنّ ذلك سيكونُ جيّدًا لقضاء إجازتكم. إلى اللّقاء.

وصلنا كاداكس في وقت متأخر جدًا. وحملنا الأطفال الذين غلبهم النعاس إلى أسرّتهم. تركتُ أصدقائي يشربون الجنْ على الشّرفة وذهبتُ لأنام. وقبل أنْ آوي إلى الفراش، وجدتُ مكالمةً فائتةً من توم. لم أُعِد الاتصال به، إنّه يبحثُ عن شخصٍ مّا، لكنّه ليس أنا. عانقتُ الوِسادة راجيةً ليلةً هادئة، وأنا أعرفُ أنّني لن أنال رجائي. ثمّة صُراخٌ في داخلي، عادةً ما يدعُني وشأني في النهار، لكنّني حين أرتمي على السرير ليلًا محاولةً النوم، يستيقظ ويبدأ يلوب مثِل قطٍ هائجٍ. يخمشُ صدري، ويُشنّجُ فكّي، ويلطمُ صدغيّ. فأفتح فمي أحيانًا لتهدئته، متظاهرة بالصّراخ في صمتٍ، لكنّني لا أنجحُ في خداعه، ويبقى ماثلًا، وقد جُنّ جنونُه، محاولًا كسْري. إنّ الفجر والأطفال والحياء والمشاغل اليوميّة، كلّها تكتمُه وتروّضه لبضع ساعات، ولكن بعد ذلك، ومع حلول اللّيل حين أكون وحيدةً، يصل في موعده تمامًا. أُغمض عينيّ بقوّةٍ. أفتحهما. وإذا به هنا ثانيةً.

7

استيقظتُ في اليوم الموالي، باكرًا جدًّا وصعدتُ إلى الشّرفةِ كي أرى البحر. أخذت الذكرياتُ تتكّدسُ حتى صارتْ مثل معطفٍ ثقيلٍ ضيّقٍ، لكنّه هذه المرّةَ، لم يخنقنْي. أفترضُ أنّ بيْتَ العائلةِ يكون هكذا؛ مكانًا مرّ عليه الناسُ كلّهم ومرّ به كلّ شيء. الحياةُ، حياتنا، فيها كثيرٌ من الحظّ: جدّي وهو قادمٌ بصناديق الفاكهة من برشلونة، عائلةُ ريمي التي كانت تجلبُ ملابسها المتّسخة كي تُغسلَ هنا، حلوى الكراميل كبيرةُ الحجم التي كانت تحضّرها لنا بيبتا من مطعم (غاليوتا) وتأتي بها إلينا محمولةً على صينيّة، حساءُ الغاثباتشو[1] الذي كانت تعدّه ماريسا، الفطورُ الأزليُّ من الخبز المحمّصِ بالزّبدة، المناشفُ بألوان الشّاطئ، المعلّقةُ على درابزين الشّرفة كي تجفّ، أوقاتُ القيلولةِ الإجباريّة، ارتداء الملابس استعدادًا للخروج في نزهةٍ إلى القريةِ، المثلّجاتُ في المساء، لعبةُ رمي السّهام، مرّاتُ السّكر الأولى، وحالاتُ العشق الأولى، والصباحاتُ الأولى، والأدوية، وعبُّ الماءِ العذبِ بعد تناولِ مادّةٍ حامضةٍ، وشخصيّاتُ اللّوحاتِ المعلّقةِ في غرفةِ الجلوس إذ تعودُ إلى الحياة وتتحوّلُ إلى وحوشٍ،

(1) حساءٌ من الخبزِ المُقطّع والثّوم.

والرّقص مع صديقةٍ صباحًا في السّاحة المهجورةِ والارتطامُ بشجرة، الأصدقاءُ في كلّ صيفٍ، وليالي السهر، والضحكاتُ الهستيريّة، والشعورُ بأنّك لن تعرف أبدًا ما سيحدث، والثّقةُ المطلقةُ في أنّ العالم ملكُنا، وحينَ تعلّمتُ أنْ يكونَ لي حبيب، الرجالُ الذين أحببتهم، والحملُ بابني البكر، والذهابُ إلى كاداكس مع الولديْن، الولدانِ وهما يحاولان فهم فنّ عمارة السبعينات المعقّدِ، وهو الأمرُ ذاتهُ الذي كان يحدثُ في كلّ صيفٍ مع أخي، قبلها بعشرين عامًا. وانفصالي مرّتين، وشيخوختُك؛ حين صارتْ أبوابُ البيتِ -التي كانت حتى ذلك الحين مفتوحةً للجميع على مصراعيْها، وأتذكّر أنّنا لم نكن نغلقها حتّى في الليل- تُغلّقُ وحدها مدفوعةً برياحٍ خفيّةٍ. وحينَ أخذت السعادةُ تتغيّرُ، شيئًا فشيئًا، عمّا كانتْ عليه من قبل، حتّى وإنْ ظلّت عادةُ الفطور، والقاربِ، والوجباتِ الخفيفة بين الفطور والغداء، والقيلولاتِ ولعبِ الورقِ على حالها تقريبًا، ثمّ رؤيةُ زملائي بنظراتهم المُتعبة وهم في نزهة مع أولادهم. في الشباب، حتّى وإنْ كنتَ مُنهكًا، لا تكون لك أبدًا هذه النظرةُ المتعبة، أمّا الآن، فثمّةَ أيّامٌ أكادُ لا أقوى فيها حتّى على رفع بصري عن الأرض. وموتُ ماريسا، وابنتها إلينا بعدها بسنتيْن، وشعوري بأنّني مُجبَرةٌ على الذهابِ إلى كاداكس لقضاء بعض الأيّامِ معك، مع أنّني لم أكن أرغبُ كثيرًا في ذلك. ومن ثمّ، لا شيء. وأنْ أرى البيتَ يشيخُ معكِ، ويبقى وحيدًا إلى أنْ صار، في نهايةِ المطاف، أنتِ. غيرَ أنّ ضوءَ الفجرِ الورديّ والأبيض، والنّسيمَ العليل والبحرَ المتلألئ

الهادئَ، كلّها تدحضُ مآسي العالمِ وتجهدُ في التأكيدِ على أننّا سعداءُ وأنّنا نمتلك كلّ شيء. أنتَ إذا لم تنظرْ إلى الوراء، فإنّك ستشعرُ بأنّ كلّ شيءٍ على وشك البدء من جديد. المشهدُ مطابقٌ تمامًا لما كان عليه وأنا في العشرين. أرفعُ بصري نحو غرفتكِ، الأوسعِ والأجملِ في البيْت، والتي تتمتّعُ بأفضلِ إطلالةٍ. أحيانًا كنت تقفينَ مُراقبةً في الطّرفِ العلويّ من الدّرجِ بشعركِ الرّماديّ الهائج، مرتديةً واحدةً من عباءات الصّيف الطويلةِ البالية التي كانتْ تشتريها لك الخادماتُ من السّوق، دون حتّى أنْ تتنازلي للذهابِ إلى هناكَ ولو مرّة واحدة لتختاريها بنفسك، إذ كنتِ على قناعةٍ تامّة بأنّ الأناقةَ مسألةٌ عقليّةٌ لا جماليةٌ، ومن هناك، مثل جنرالٍ يقودُ جنوده، تعطين تعليماتِ اليوم. ونكون أحيانًا، بصدد تجاذب أطراف الحديث بهدوءٍ على الشرفةِ جالسين في أرجوحة النوم، حين تتدخّلين من غرفتكِ، فجأةً، في الحوار بملحوظةٍ لطيفةٍ أو لئيمة. لا أحدَ اليومَ يشغلُ غرفتكِ، ربّما أخصّصها لمبيت غليوم وباتوم، دون أنْ أقوى حتّى على دخولها.

هربتُ من البيْتِ قبل أنْ يستيقظ أحدٌ، كنتُ بحاجةٍ إلى فنجانِ قهوةٍ وودْتُ الذهاب بعدها إلى المقبرة. القريةُ مليئةٌ بالمصْطافين، لكنّها في تلك السّاعات من اليومِ تبدو هادئةً. إنّ الأشخاص المبكّرين هم أولئك الذين يشترون الخبز والجرائد ويخطّطون لوجبةٍ ما قبل الغداءِ ثمّ الخروج في نزهةٍ على متن القارب أو التخطيط لنشاطاتٍ مشتركةٍ مع أبنائهم. تلك الصباحات التي يكون أهمّ ما يشغلُ البالَ فيها هو اتخاذُ القرار بشأنِ ما يجب تناوله من طعامٍ في منتصف النهار، ودهنُ الأولاد بالمرهم الواقي من الشمس. يكادُ الشارعُ يخلو من

الشباب في هذه الساعة. أحسبُ أنّهم نائمون. إنّ أكثر ما أفتقده من أيّام الشبابِ القدرةُ على النّوم الطويل العميق. الآن أندسُّ في فراشي كمن يندسُّ في تابوت. وفي بعض الأيّام، ولِكَيْلا يكون عليّ التعارك مع الفِراش، أنام متكوّرةً على الأريكة. أنْ تحظى بعلاقةٍ جنسيّةٍ لهو أمرٌ يسير، أمّا أنْ تحظى بمن يحتضُنك ليلةً بكاملها فتلك قصّةٌ أخرى، وحتّى هذا لا يضمنُ أنْ تحظى بنومٍ مريحٍ، فثمّة رجالٌ غيرُ مريحين البتّة.

جعلتْ نسمةُ الصّباح الدّافئة، الفستانَ الحريريَّ الرّقيقَ رقة ورقةِ السجائر، الذي كنتُ أرتديه، يخفقُ فوقَ جسدي. قد تنجح في ألّا تكونَ ثقيلاً وألّا يُثقلُ عليكَ شيءٌ، غيرَ أنّ الحزنَ يُضاعفُ وزنَ الأشياء.

في كُشك السّاحة العامّة، الذي أتردّد إليه منذ طفولتي، قدّموا ليَ العزاء أيضًا، بكثيرٍ من التّحفّظ الممزوجِ ببعضِ الخجل. أُقدّرُ دومًا عدمَ تحويل الشّفقة والتّضامن إلى مشهد استعراضيّ. لكنْ مع الحُبّ يصعبُ تجنّبُ ذلك. ثمّةَ هالةٌ من ضوءٍ تلفّ العاشقيْن، كما لو كانا في قلبِ دوّامةٍ، وما من ريحٍ بوسعها أنْ تقتلعهما. إنّنا لا نكون أبدا بهذه القوّة مثلما نكون ونحنُ عشّاقٌ منسجمون. وفي هذه التجربة ترتفعُ المعايير. ففي حالتي على الأقل، بوسعِ مجرّدِ شرارةٍ جنسيّةٍ أنْ تصبحَ بديلًا، أمّا الحبُّ فإنْ لم يكنْ جارفًا فلا يجدي نفعًا لأنّه لا يكون موجودا أصلًا. في الطّريق، صادفتُ خوان رئيسَ البلديّة، كان يرتدي بنطالَ برمودا كحليًّا وقميصًا أبيضَ ناصعًا. بشرته مُسمرّةٌ بفعلِ الشمس، ويبدو سعيدًا دومًا. نعرفُ بعضنا بعضًا منذ الصّغر وقد كان في غايةِ اللّطفِ حينَ كتبتُ إليه أنّك تودّين أنْ تُدفني هنا.

أجابني بأنّ ذلك ممكنٌ بالطبع وأنّه سيتدبّر الأمر، وما دام هنالك حياةٌ، فلا شيء يضيع أبدًا. أمّا أنا فقد عرفتُ أنّ كلّ شيءٍ قد ضاع. لكنّني شكرتُه على كلماته ومساعدته. أعتقدُ أنّكِ مدفونةٌ في واحدٍ من أجمل الأماكن في العالم. ذاتَ يوم، قريبٍ ربّما، وبعدَ أنْ صارَ بوسعي أنْ أرى، من موقعِ صحّتي الجيّدة وسنيّي الأربعين، موتيَ وأنظرَ إليه وجهًا لوجه، سأشتري القبرَ المجاورَ لقبركِ. من هناكَ بوسعنا أنْ نشهدَ طلوعَ الفجر، حتّى أنّنا لنْ نضطّرَ إلى النهوض كي نراه. خوانْ وسيم، مثقّفٌ وجذّاب. ربّما هو أكثرُ جاذبيّة من أن يكون رجل سياسة. في كلّ مرّة أراه، أسأله إنْ كانَ حقًّا عمدةَ كاداكس. فيغمى عليه من الضحك. إنّ أساليبَ المُغازلةِ خفيّة. يبدو لي من غير الملائم ولا الطبيعيّ أنْ يكون واحدٌ من أصدقائي رئيسَ بلديّة، لكأنّه على الجميعِ أنْ يظلّوا معي في فُسحةِ المدرسةِ يلعبون لعبةَ نطّ الحبْل ويتأمّلون الغيوم. كان أبي يقول إنّ منصب عمدةِ كاداكس هو أفضلُ وظيفةٍ في العالم. أنا لم أسمعه يقول ذلك يومًا. لكنّك رويت لي الأمر. ولا أذكرُ أنّني كنتُ يومًا بصحبته في كاداكس. فقد افترقتما حين كنا صغيريْنِ جدًّا أنا وأخي. وأكثر ما عرفته عنه كان عن طريقك. أتذكّر يومًا، حين كنت تقيمين في النزل قبل الأخير، ذلك الذي طردوك منه لسوء سلوكك؛ والحقّ، إنّ المسألة كانت أكبر من ذلك، فقد كان الباركنسون يلتهم دماغَك، كما لو أنّ سدّ ماء انفتحَ فيه وأخذ يفيض شيئًا فشيئًا، فغابت سيطرتكِ على عقلكِ البديع، وهو كلّ ما تبقّى لك. كان التّعب في الحقيقة قد استولى عليك حينها، فما عاد بوسعكِ البقاءُ في تلك الشّقق الفندقيّة الفخمة المخصصّة لكبار السّن، ورغم

إصرارك، وقد فاق غضبُك يأسَك، على أنّ حالتك لم تكن بذلك القدر من السّوء، حاولتُ، يومها، التحدّثَ إليكِ كي تتعقّلي، وتُسلّمي أسلحتكِ، وتكُفّي عن رفضِ مساعدتنا، وكي أُقنعك بأنّه إذا كانت تلك هي النهاية حقًّا، فلنعبرْها على أفضل حال، بكرامةٍ وهدوءٍ وسلام، على النحوِ الذي كنّا نقول دومًا إنّنا نريدها عليه. وضربتُ لك مثلًا أبي وجلَدَه أمام المرض والموتِ، فقد رووْا لي -وروِيْتِ لي- أنّه قالَ ذاتَ يومٍ في المشفى، وقد استولى عليه المرض: «بالنّظر إلى مدى بشاعةِ الحياةِ عمومًا، فإنّ حياتي كانت جيّدةً جدًّا». فنظرتِ إليّ من خلال العتمة وقلتِ لي: «لم يكن موتُ أبيكِ على هذا النّحو، ليس كما تتصوّرين».

لم تسعفني الشجاعةُ لأسألك كيف كان إذن، وأنتِ لم تُضيفي أيّ كلمةٍ أخرى. تركتِ تلك العبارةَ المسمومةَ تحلّقُ بيننا، طعنتِني بها لا أدري إن كان في نوبةٍ من صحوٍ أم من جنون، ولن أعرفَ أبدًا، ولا أريد أنْ أعرف، إنْ كان أبي قد ماتَ وهو يصرخ مذعورًا، أم مات بكرامةٍ ميتَةَ الأبطالَ، وهو التّصور الذي أعانني على العيْشِ -أنا الطّفلةَ الحمقاءَ- لسنواتٍ طوال.

دخلتُ إلى فندقِ الماريتيم من أجل الفطور. وعلى واحدةٍ من الطّاولات المخصّصة لمرتادي هذا المكان اليوميّين، (يجلسُ السيّاح عادةً بمحاذاةِ الشاطئ، فيما يشغلُ الروّاد اليوميّون الطاولات الملاصقة للواجهة الزّجاجيّة، تلك التي في مأمن من الرّيح أكثر من غيرها، والتي تتيحُ لك أنْ ترى من يدخل ومن يخرج) رأيتُ فجأةً، رجلَ الجنازة الغامض الوسيم. عرفته على الفور، رأسٌ كبير قويّ،

ونظرة ٌحيويّةٌ خاطفةٌ وممازحةٌ بعضَ الشيء، ولحيةٌ كستنائيّة، وشعرٌ شديد الشُّقرة، غزيرٌ وفوضويّ، وأنفٌ كبير، وشفتان مكتنزتان متخفّيتان باللّحية، وجسدٌ فارعٌ، نحيلٌ وقويٌّ في الآنِ ذاته. كان يقرأ الجريدة، رفعَ بصره حينَ أحسّ بأحدهم يقترب، فأفلتتْ منّي ابتسامةٌ وأخفضَ كلانا بصرَه على الفور. على كلّ حال، لم أكنْ أرغب كثيرًا في تلقّي تعزيةً أخرى، ولا تحميل غريبٍ حزنيَ وتعبي. ومع هذا، شعرتُ بالزهو، فخلعتُ نظّاراتي الشمسيّة، ورفعتُ تنّورتي قليلًا. أعتقدُ أنني أتقاسمُ مع غالبيّة نساء الكوكب، بل حتّى مع البابا وبعض الزعماءِ الدينيّين، الفكرةَ المجنونةَ القائلةً بأنّ الحُبّ وحده ما سوف يخلّصنا. إنّ الشباب، وبعضَ الشابّات النبيهات، يعرفون أنّ العمل والطّموح والسّعي الحثيثَ والفضول هي أيضا أشياء تخلّصنا، لكنّني على أيّة حال، أعتقد ألاّ أحد يستطيعُ العيش دون جرعةٍ معيّنة من الحبّ والاتّصال الجسديّ. إذ أنّنا، تحتَ هذا الحدّ الأدنى، نفسُدُ. لا غنى عن المومسات، وكان ينبغي أن توجد مومسات للحُبّ أيضًا. وسببُ انعدامِهنّ هو أنّ الحُبّ يصعبُ إعادةُ إنتاجه وتكلّفه، فهو مُجهدٌ وطويلٌ جدًّا، وعميقُ الغورِ، ومدمّرٌ جدًّا في الوقتِ ذاته.

- من ذاكَ الذي تُغازلينَ؟ جلستْ صوفيا إلى جانبي ووضعت سلّة القشّ الضخمة التي بيدها، على الطاولةِ.

- كيفَ عرفتِ أنّني أُغازل؟

- من هيئتك المتأهّبة، حين تغازلين تشدّين قامتك وتبدين كمن يخفي أمرًا. كما أنّ لباسكِ الدّاخليّ مكشوف.

أخذتُ أضحك.

- ليس صحيحًا، فهذا ثوبٌ للسباحة.

لا بأس، ثمّ إنّه رائع. -توجّهتْ بالحديثِ إلى النّادلِ الذي كان يحملُ طبقًا مليئًا بالفطائر والخبز المحمّص بالزبدة-: هل يمكنُ أنْ تُحضر لي كأسًا من فضلك، كأسًا صغيرًا -راسمةً بالسّبابةِ والإبهام إشارةَ الحجمِ الصّغير- أشعر، في الحقيقة، ببعض الغثيان.

نظرتُ إليها بطرْف عيني، كانت ناعمةً جدًّا، ببنطالها القصير ذي الثنيات، وقميصِها المخطّط ونظّاراتها التي على شكل فراشة. شعرُها أسودُ حالكٌ يصلُ إلى كتفيها، مرتّبٌ دومًا، مغسولٌ ومُجفّفٌ ومسرّحٌ كلّ يومٍ، وفي أيّ مكانٍ كان. لون البشرة حنطيٌّ موحّد، والفمُ على أجملِ صورةٍ يزيّنهُ قمرٌ صغيرٌ على الشّفة العليا، والعينان مُعبّرتانِ، والجسدُ نحيلٌ ومشدودٌ ومتناسق.

- أتذكرينَ حينَ قلتُ لكِ إنّ رجلًا شديدَ الوسامة كان في الجنازة ولم أتعرف عليه؟

- نعم أتذكّر.

- هوَ ذا هناك.

- ماذا تقولين؟ -تطلّعتْ حولها بالانتباه المسعورِ الذي يُبديه عالمُ طيورٍ قيلَ له إنّ طائرًا من فصيلةٍ منقرضةٍ يعبرُ السّماء-. الآن عرفتُهُ. إنّه الرّجلُ الذي يجلسُ إلى جوارِ الواجهةِ الزّجاجيّة. أنا أعرفك جيّدًا، أليس كذلك؟

أخذتُ أضحكُ من جديد.

- كيف حزرْتِ؟

- الأمرُ في غايةِ السهولة. فلدى هذا الرّجل كلُّ العناصر التي تروقك: الأنفُ الكبير، الجسمُ المتينُ وإنْ كان نحيلًا، الأناقة المُسترخية التي تجدينها عند من يشعرون بارتياحٍ دائمٍ أينما كانوا. والبساطة والشّال، والـ «تي-شيرت» وحذاء القشّ القديم الحائل. والبنطالُ المُمزّق، لا شيءَ يخرجُ عن هذا، ما من علامةٍ غريبةٍ من أيّ نوعٍ، لا أساور ولا وشمَ ولا قبّعاتٍ ولا ساعة ثمينة، إنّه نوعكِ المفضّل. اذهبي وحيّيه.

- هل جُنِنْتِ، مستحيلٌ، سأموتُ خجلًا لو فعلت. ربّما لا يتذكّرني. ولم أكن يومَ الجنازةِ في حالة جيّدة.

- ما الذي تقولينه! كنتِ جميلةً جدًّا. كانَ على وجهكِ تعبيرُ حزنٍ وتيه، وما يزال في الواقع.

- هذا يسمّى اكتئابا. -أجبتها-. أتساءلُ لماذا حضر الجنازة وهل كانَ يعرفُ أمّي.

- اذهبي واسأليه!

- كلاّ، كلاّ، لا يهمّ، دعي هذا ليوم آخر.

- كيفَ تعرفينَ أنّ هنالكَ يوما آخر؟

- هنالكَ دومًا يومٌ آخر. حسنًا، ليس دومًا. لكنّ هذا الرّجل يعيشُ هنا بلا شكّ.

- آه! ياللك من جبانة!

عندها، نهضَ الوسيمُ الغريب. فوَكزتني صوفيا بكوعها ولِذنا كلانا بالصّمت ونحنُ نراقبه. سار بضع خطواتٍ نحو المخرج، ثمّ توقّفَ، ونظرَ ناحيتنا، وحيّانا مومئًا برأسه تحيّةَ وداعٍ خجولةً جدًّا. فردّت صوفيا التّحيّة ملوّحةً بيدها في حماس، كما لو كانتْ تودّعُ مسافرينَ على باخرةٍ ضخمةٍ عابرةٍ للمحيطات.

- أُعْلِمُكِ منذ الآن، إنْ لم تستميله فلسوفَ أفعلُ.

- حسنًا. رائع!

في تلك اللّحظة، اتّصلَ غيليم ليخبرني أنّه سيصلُ في اليوم الموالي. لم يحدثْ لصوفيا أنْ التقتْ به، وكانَ عندها فضولٌ كبيرٌ لمعرفته. يصعبُ عليّ أنْ أتخيّل شخصيْن يختلف أحدهما عن الآخر أكثر من هذيْن. صوفيا محبّةٌ للدّنيا، كريمةٌ ومتسامحةٌ ونزيهةٌ وشفّافة، مفعمةٌ بالحماس وطفوليّة، شغوفةٌ ونرجسيّة. أمّا غيليم، فهو الرّجلُ الأشدُّ مكرًا وسخريةً ومرحًا من بينِ من عرفتهم، ذو مبادئ ثابتة، وبلا ذرّة تسامحٍ مع الحماقات. يحدثُ أنْ تهاتفني صوفيا مع أولى ساعات الصّباح كي تخبرني أنّها لم تُغمضْ جفنًا طيلةَ اللّيل، إذ تمرّ بلحظة إبداعٍ قصوى، لا تنفكّ فيها الأفكارُ تراودها بشأنِ تحويرِ ثوبٍ تجاوزته الموضة وإعادة تركيبه، في حين يكادُ غيليم لا يرتدي طوالَ الوقت سوى «تي-شيرتات» قديمة من تلك التي يصمّمها طلاّبهُ في المعهد ويبيعونها ليتمكّنوا من الذهابِ في رحلة نهاية الفصل. هي ناعمةٌ ورقيقةٌ مثلَ لعبةٍ صينيّةٍ ناطقة، أمّا هو، وإنْ كانَ حينَ عرفته

غايةً في النّحولِ مثلَ ابننا الآن، فقد تحوّل إلى رجلٍ صلبٍ ومتين، وقد بقي على هذه الحالِ. إنّ دواخلنا تنجحُ دومًا في القبضِ علينا من جديد. إذ ينتهي بنا المطافُ عائدينَ إلى ما نحنُ عليه. ولا ينفعُ الجمالُ أو الشباب إلاّ كقناعٍ نختبئُ وراءه بعض الوقت. أعتقدُ أنّني بدأتُ أتصوّرُ، في لحظاتٍ معيّنةٍ، كيفَ ستكونُ وجوه أصدقائي. أجهلُ تمامًا كيف ستكون ملامحُ ولديّ، فالوقتُ مازال مبكّرًا، وهما مغموران بالنّور وبالحياة، ويُشعّان بهما. أمّا وجهي فلا أجرؤ حتّى على النّظر إليه بطرْفِ عيني، ولو من بعيد. وأمّا وجهكِ أنتِ يا أميّ، فقد اختفى وراء القناعِ الذي ألبسكِ إيّاه المرض. إنّني أجتهدُ كلّ يومٍ كي أستعيده، كي أتجاوز السنواتِ الأخيرةَ وأجدُ نفسي أمامَ نظرتكِ الحقيقيّة، قبل أنْ تصيرَ حجرًا. الأمرُ أشبهُ بمن يحملُ مِطرقةً ويمضي هادمًا الجدران. يحدثُ الشيءُ ذاتهُ مع الحزن الذي يأخذُ في الترسّب فوقنا ويغطّينا شيئًا فشيئًا، مثل طبقاتٍ رقيقةٍ جدًّا من البلّور المُفرقِع. إنّنا مثلُ حبّةِ البازيلاّء في الحكايةِ[1]، التي وإنْ كانت مدفونةً تحتَ ألَفٍ من الفُرُش، تومضُ ولو خفيفًا مثل ضوءٍ يلمع. وكما في الحكاياتِ أيضًا، وَحده الحبّ الحقيقيّ يدواي الألم، رغم أنّه لا ينجحُ هو الآخرُ في ذلك أحيانًا. أمّا الوقتُ فيسكّنه وحسب، ويهدّئنا نحنُ، تمامًا مثل مرّوضِ الحيوانات.

أنهتْ صوفيا كأسها فيما أخذتْ إليسا التي وصلتْ لتوّها مع داميان، تفكّرُ في خياراتٍ للتّرويقة. اقترحتْ صوفيا أنْ تتولّى شراء

---

(1) إشارة إلى حكايةِ الأميرة وحبّةِ البازيلّاء وهي من حكايات الدنماركي هانز كريستيان أندرسن.

النّبيذ، أمّا أنا فقد قرّرتُ منحَ جسمي بعضَ العناية، مُستغلّةً أنّني في فترةِ حدادٍ، وأنّ الآخرين مازالوا يتوقّعونَ منّي أقلّ من المعتادِ في ما يتعلّق بالمهمّات المنزليّة هذه الفترة -وغيرها من الفترات على كلّ حال-. وأمّا المقبرة، فسأقصدها في ساعةٍ أخرى، مساءَ الغد.

يوجدُ في القريةِ مكانٌ وحيدٌ تتوفّرُ فيه مستلزمات التجميل والعناية بالبشرة، بقّالةٌ صغيرةٌ، قبالةَ البحر مباشرةً، مليئةٌ بالمنتجات والعطور، تعبق بروائح القديم منها، وبالعطرِ الخفيف الشّاحب لمسحوق الطّلق[1] والورد. وإلى جانبِ البقّالةِ صالونُ تجميلٍ صغيرٍ في آخر الشارعِ. تولّتْ العنايةَ بجسدي سيّدةٌ في منتصفِ العمر، أكثرُ انتصافًا في عمرها منّي، وقد أخبرتني أنّها تمارس السحر، فضلًا عن عملها كخبيرة تجميل. فقلتُ لها وأنا كذلك. ثمّ أدرفتُ قائلة: «أنا شرّيرةٌ وساحرةٌ، الاثنتان معًا»[2]. لاذتْ بالصّمتِ ونظرت إليّ نظرةً مُرتابة، مغمضةً عينيْها نصفَ إغماضةٍ. لم تكن تبدو كساحرة. لكنْ لحسنِ حظّها أنّها كانتْ تلبسُ على طريقةِ امرأةٍ ريفيّة: تنوّرةً بنيّة إلى الرّكبتيْن، وقميصًا أبيض بكمّين قصيريْنِ وزهورٍ صغيرة بلونِ الأزرق الباستيل، وحذاءً أبيض على طريقةِ الممرّضات. شعرها أشقرُ مسرّحٌ ووجهها بكاملِ زينته، وهي مربوعةُ القامةِ ولها هيئةٌ أموميّة. صارتْ كلّ امرأة عجوزٍ تبدو لي، مؤخّرا، مثلَ أمٍّ أرغبُ في الارتماء بين ذراعيها.

تمدّدتُ على السّرير الصغير وبدأتْ المرأةُ بتدليكِ قدميّ،

---

(1) مسحوق من معدن الطّلق أو التالك يُستخدمُ في صناعةِ موادّ التجميل وغيرها.

(2) في الإسبانية كلمة bruja تعني ساحرة وشرّيرة في الوقت ذاته.

أغمضتُ عينيّ وتنفّستُ بعمق. منذ وفاتكِ، لا شيء يخفّفُ عنّي سوى الاتصال الجسديّ مهما كان عابرًا أو عرضيًّا أو خفيفًا. أغلقتُ كلّ الكتبِ، فلست قادرةً، هذه المرّة، على إيجاد سلوايَ فيها، فهي تُغالي في تذكيري بك وببيْتكِ المحتشدِ برفوف الكتب، وبالمكنسةِ في يدك وأنتِ تُنجزينَ حملةَ التنظيف السّنويّة الدقيقة للمكتبةِ، وبحملاتنا الاستكشافيّةِ إلى لندن بحثًا عن أحد كنوز كتب الأطفال المصوّرة، وبالسّاعات التي أمضيناها معًا في تصفّحها جنبًا إلى جنب على سرير الفندق، كنتُ أروحُ وأجيء شاردةً، وأقومُ بأشياء أخرى، وكنتِ مستغرقةً تمامًا، مثلَ بنتٍ صغيرة. «يُمكنُ أنْ نعرفَ إنْ كان الشخصُ يحبّ الكتب أم لا من الطريقةِ التي ينظرُ بها إليها، وكيف يفتحها ويغلقها، وكيف يقلّبُ صفحاتها». هكذا كنتِ تقولين.

«مثلما هو الحالُ مع الرّجال»، هذا ما كانَ يخطرُ لي -وأحيانًا أنطقُ به- معقّبةً. فتحدّقينَ بي، نصفَ مستنكرةٍ، نصفَ مستمتعةٍ، نصفَ سيّدةٍ وقورةٍ، نصف امرأةٍ لم تفوّتْ أيّةَ فرصةٍ للتمتّعِ بحياتها، ثمّ تغربينَ في الضّحك. لم نكنْ يومًا أمّا وابنةً تفضفضُ كلّ منهما إلى الأخرى بكلّ شيء، لم نكنْ يومًا صديقتيْن. لم نتحدّثْ يومًا عن شؤوننا الحميمة. أعتقدُ أنّ كلّ واحدةٍ منا كانتْ تحاولُ جاهدةً أنْ تظهرَ على خيرِ صورةٍ لها أمام الأخرى. وأتذكّرُ ذُهولَكِ يومَ قُلتِ لي، إنّه في حالِ لم تأتكِ الدّورةُ الشهريّة قريبًا، يتوجبّ علينا الذهابُ إلى الطّبيب، فأجبتكِ بكلّ هدوءٍ، بأنّ الدّورة الشهريّة تجيئُني منذ سنتيْن وأنّني لم أقل لك ذلك لأنّ الموضوع لا يخصّكِ. كنّا في السيّارة،

أوقفتِها فجأةً ونظرتِ إليّ فاغرةً فاكِ لثوانٍ، ثمّ أسرعتِ حين سمعتِ الأبواقَ المسعورة للسيّاراتِ الأخرى، ومذاكَ لم نعدْ إلى الحديث في هذا الموضوعِ على الإطلاق.

الآنَ، لا أستطيعُ أنْ أفتحَ كتابًا دون التفكير فيك. أمّا بالنسبة إلى علاقاتي بالرجال فالأمر مختلف. لقد عرفتُ، غريزيًّا، منذ بدايةِ شبابي، أنّ عليّ إخفاء ذلك الجزء من حياتي عنك وإلاّ اقتحمتِه هو الآخرُ بأنانيّتكِ وكرمِكِ وبصيرتكِ وحبّكِ. كنتِ تراقبينني مِن مسافةٍ محسوبةٍ، أُحبُّ وأُنهي قصّة حبّي، ينكسرُ ظهري ثمّ أقفُ على قدميّ مجدّدًا، تاركةً إيّاي أنعمُ بسعادتي أو أعاني في هدوء، دون مبالغةٍ منكِ في التعاطفِ أو في إعطاء التوجيهات. يبدو أنّني أدركت على نحوٍ مّا أنّ حُبّ حياتي هو أنتِ وأنّه ما من حبٍّ آخرَ مهما كان عاصفًا يمكنه أنْ يغلُبَ حبّكِ. إنّنا على كلّ حال، نحبُّ على النحو الذي أحبّونا به في طفولتنا، وكلُّ حبّ يأتي بعد ذلك يكون في العادة نُسخًا مُكرّرةً للحبّ الأوّل. إنّني هكذا، مدينةٌ لك بكلّ أشكال حبّي اللاّحقة، بما فيها ذلك الحبُّ الوحشيُّ الأعمى الذي أُكنّه لولديّ. لا أستطيعُ الآنَ، فتح كتابٍ دونَ أنْ تتملّكني الرّغبةُ في رؤية وجهكِ الهادئ المُتأمّل، من غيرِ أنْ أعرف أنّني لن أراه ثانيةً، ولعلّ الأصعب من ذلك، أنّ وجهكِ هو الذي لن يراني بعد الآن أبدًا. حينَ يبدأ العالمُ في الخلوّ من الناسِ الذين نحبّهم، نتحوّلُ شيئًا فشيئًا، وعلى إيقاعِ الموتِ، إلى غرباء. كانَ مكاني في العالمِ يقبعُ في نظرتِكِ، وكانَ يبدو لي بديهيًّا وخالدًا إلى حدٍّ أنّني لم أُشغلْ نفسي يومًا بالسؤالِ عن ماهيّته. لم يكنْ هذا أمرًا سيّئًا. فقد نجحَ في إبقائي طفلةً حتّى الأربعين من

عمري، بابنيْنِ وزواجيْنِ، وكثيرٍ من العلاقاتِ، وكثيرٍ من الشّقق والوظائف. والآنَ آملُ أنْ أنجحَ في الانتقال إلى مرحلةِ البلوغِ حتّى لا أتحوّلَ مباشرةً إلى عجوز. لا يروقني أنْ أكونَ يتيمةً، لستُ مخلوقةً للحزن، أو لعلّني كذلك، لعلّني بالحجمِ المطابقِ تمامًا للحزن، ولعلّه الثّوبُ الوحيدُ الذي على مقاسي.

- ألاحظُ عليك تشنّجًا مّا وكثيرًا من التوتّر. -قالت لي السّاحرةُ التجميليّة-. هل يُمكنُ أنْ أضعَ يدي فوقَ قلبكِ؟

وافقتُ على مَضض. فصدري، من ناحيةِ المبدأ، ليسَ منذورًا لكي تضعَ نساءٌ غريباتٌ في منتصف العمر أياديهنّ عليه، مهما بلغنَ من التبحّر في السّحر. وضعتْهما برقّةٍ بالغة، شعرتُ بدفئهِما عبرَ حرير فستاني. لكنّني كنتُ واعيةً بشدّة بمدى حميميّة حركتِها فلم أتمكّن من الاسترخاء. وبعدَ ثلاثين ثانيةً، رفعتُهما.

- إنّكِ منغلقةٌ جدّا، قاسيةٌ مثل حجر، كأنّ قلبَكِ محبوسٌ في قفص.

- أميّ توفّيت منذ وقتٍ قريب. أجبتها.

- آه. حسنًا. -ثمّ لاذتْ بالصّمت. وهو ما يدلّ، بما لا يدعُ مجالًا للشّك على أنّها محتالة. إذ يُفترضُ بساحرةٍ حقيقيّةٍ أنْ تمتلكَ مخزونًا وأدواتٍ أكبرَ أمامَ الموت-. حسنًا. أردفتْ أخيرًا، لديّ زيوتٌ عطريّةٌ تساعدُ في فتحِ القلبِ، تحرقينها في الليل، قبل أنْ تذهبي إلى النّوم.

- آسفة، لكنّني أكره ترّهاتِ العوالم الباطنيّة. -قاطعتُها وأنا أفكّر في أنّه لم يكن ينْبغي لي أنْ أدعها تلمسُ نهديّ-. لا أؤمنُ بالطّب الطبيعيّ ولا بالطّبِ التّجانسيّ، ولا بأيّ شيءٍ من هذا القبيل.

- ولا حتّى بورود باخ؟[1] سألتني مذعورةً، وهي تمسكُ بقوّةٍ بصليبٍ من ذهبٍ في وسطه ياقوتةٌ صغيرةٌ كانتْ تضعهُ حوْل عُنقها.

- ولا حتّى بهذا.

نظرتْ إليّ بعينِ الشفقة، حُزنًا على عدمِ إيماني بعوالمها الباطنيّة أكثر من حزنها على موتِ أمّي.

- الحقيقةُ أنّ جدّي كان طبيبًا جرّاحًا، ولا نؤمنُ، في بيْتنا، إلاّ بالعلم. أعتذرُ منك.

أنهتْ مهمّتَها في صمت. نظرتُ إلى قدميّ. كانت أظافري تلمعُ بالطلاء. وعندَ خروجي، ناولتني السّاحرة وخبيرة التجميل زجاجتيْنِ صغيرتيْنِ من الزّيوت العطرة، «ستجعلكِ تتحسّنين، سترَيْنَ ذلك. اعتنِي بنفسك». فكّرتُ في إعطائهما للولديْن كي يُعدّا بهما شرابًا سحريًّا. فهما فعلًا، لا ادّعاءً، يحسنانِ ذلك.

(1) أحدُ علاجات الطّبّ البديل وهو عبارة عن محلول من مشروب البراندي وماء الوردِ المحتوي على خلاصةٍ مكثّفة من زهورٍ متنوعة. وسُمّي كذلك نسبةً إلى مبتكِره المختص الإنجليزي في الطّب التجانسيّ إدواردْ باخْ.

8

أقبلتْ إليسا بتنّورتها الجينز القصيرة، وفانيلتها ذات الحمّالتيْنِ البيضاويْنِ وحذائها الفضّيّ النّافر، وبشرتها شديدة السّمرة وشعرِها الطويل، المنفوشِ المُرسَل. فكّرتُ بشيءٍ من الحسدِ، أنّها ارتدت هذه الملابس من أجل داميان. يختلفُ الأمرُ اختلافًا تامًّا حينَ نلبسُ من أجلِ رجلٍ بعيْنِه لا من أجلِ الرّجال في المطلق، أو حينَ نلبسُ من أجلِ لا أحد، كما صرتُ ألبسُ مؤخّرًا. وعلى أيّة حال، فإنّ الناسَ الذين يلبسون من أجل أنفسهم، هم الأكثر أناقةً في الغالب. إليسا ليست طويلةَ القامةِ ولها جسدٌ جميلٌ نحيلٌ وأنثويٌّ يشدّ الأنظارَ إلى مؤخّرتها. وكلّما أخبرتُها أنّني معجبةٌ بيديْها الرقيقتيْنِ، الكبيرتيْن مثلَ يديّ تقريبًا على الرّغم من اختلافهما في الشّكل، تجيبني بتواضعٍ «إنّهما يدان منذورتان للعمل». وهذا صحيح، فهما يدانِ عمليّتانِ وواقعيّتان، ليستا يديْنِ لنحرِ الأسودِ، كتلك التي يمتلكها الرّجال الذين يروقونني، ولا حتّى لنحر القرابين والتّقرّبِ إلى الآلهةِ وارتداء الخواتم العتيقة، مثل يديْكِ، مع أنّني واثقةٌ من أنّهما تخفّضانِ الحرارة أيضًا وتطردانِ الكوابيس. وأعتقدُ أنّنا، لولا إليسا، ما كنّا لنأكل يومًا. وبما أنّنا، أنا وصوفيا، لا نطبخ، فإننا مستعدّتان للتغذّي على اللّبن والخبز المحُمّصِ والنّبيذ

الأبيض. وأولادنا أصحّاءُ جدًّا وأقوياء، حتّى لأحسبُ سَقيَهُم القليل من الماء يكفي، ليبقوا أحياءَ.

كنّا على موعدٍ للعشاءِ في بيتِ كارولينا وبيب، وكان سينضّمُ إليه، أيضًا، هوغو صديقُ بيبْ الأقرب، الذي كان يمضي بعضَ أيّامٍ برفقتهم. رجلٌ آخرُ نغازله، فكّرتُ شاردةً فيما كانت إليسا وصوفيا تتحدّثان عن الأحذيةِ.

في تلكَ اللّحظة، أقبلَ إدغار بساقيه وذراعيْه الذّهبيّتيْن، الطويلتيْن المَرنتيْن. كان نيكولاس ما يزالُ كجروٍ غضّ، أمّا إدغار فقد كان يتحوّلُ إلى أيل، يمشي بتثاقلٍ وفتورٍ كأنّه يكنسُ الهواءَ بقدميه، وهي الطّريقةُ التي يمشي بها حينَ يكون بصحبتي منذ أنْ كانَ مراهقًا، كما لو كانت كلّ الأماكنِ التي نقصدها معًا كوابيس تثقلُ الكاهل، أو كأنّه قد زارها مليون مرّةٍ من قبل. وهو يتكلّم مثلما يمشي، إذ يتعاجزُ عن إنهاء الكلمات والحكْيِ والشّرح. إنّه موجود في الحياةِ وحسب. يعنّ له الكلام مرّةً في الشّهر، ربما أكثرَ أو أقلّ، فيروي لي، على مدى ساعتيْنِ متتاليتيْن، مغامراته المدرسيّة. ويبدو كأنّه فقد هبةَ الكلام تمامًا أو كاد، على الأقل حين يكون معي، فيتحدّثُ على عجلٍ أثناء الضحكِ أو الأكل، وعادةً ما تأتيه نوباتُ الثرثرةِ ساعةَ الطّعام؛ ورغم بذلي جهدًا في التّركيز وفي إرهافِ السّمعِ إلى أقصى حدّ، فإنّني أكادُ لا أفهم شيئًا مما يقوله لي. وإذ ذاك، يحدّقُ بي فجأةً، بعد أنْ يكون قْد كرّر كلّ قصّة ثلاث مراتٍ، متذكّرًا أنّه يتحدّثُ مع أمّه، فيقول لي إنّني صمّاءُ مثل حجرِ الحائط ويصمتُ حتّى الشّهر

التالي. أمّا الحوارُ التقليديّ الآخرُ الذي يدورُ بيننا مرّةً في الشهر فهو عن الحياة وكمْ هي جميلة:

- هل تعيانِ كم نحنُ محظوظون؟ انظرا كم هي جميلةٌ هذه الأشجار. انظرا روعةَ الشّارع، تنفّسا بعمقٍ. أقول لهما خلال لحظاتِ التفاؤل المُنعش التي تجتاحني من حينٍ إلى آخر، بفضلِ النّبيذ الأبيضِ أو القُبلِ، أو بفضل جسدي الذي أتلقّى في بعضِ الأيّام قوّتَه البدنيّة وآخرَ قطراتِ الشبابِ فيه كأنّها هديّة.

في تلكَ اللّحظةِ، وفيما يُلمِّحُ نيكولاس بما يجولُ في خاطره آخذًا نفسًا عميقًا، ينظرُ إدغار إليّ بهيئةٍ جدّيةً قائلًا إنّهما باتا يعرفانِ ذلك، وإنّني قُلته ألف مرّةٍ، وإنّ هذا الشّارع الذي يبدو لي اليومَ مثيرًا هو شارعنا الذي نعبره أربعَ مرّاتٍ في اليوم، وإنّ ما يريده بالمقابلِ، هو أنْ يذهب إلى فلورنسا، كما وعدتُه قبل سنتيْن. كُنتِ تهدّدينه دومًا بعدم الذهابِ إلى مصر. كنت تقولين له «إنْ لم تُعدّلْ سلوكَك، فلنْ نذهبَ إلى مصر». وفي نهايةِ المطاف، فإنّ الثورةَ ومرضَكِ حالا دون ذهابكما. كانت فلورنسا آخرَ مكانٍ كنتِ تودّينَ السّفرَ إليه. وحينَ قلتُ لك إنّني لستُ في وضعٍ يسمحُ لي بالاعتناء بك وبإدغار في وقتٍ واحدٍ، وإنّه إنْ ساءت صحّتُك، وأنتِ هكذا في مكانٍ بعيدٍ، لن أعرفَ كيف سنتدبّرُ أمرنا -ففي برشلونة كانت حفلةُ سياراتِ الإسعافِ والكرسيّ المتحرّكِ والنزهاتِ الصباحيّة الطارئةِ قد بدأت- غضبتِ جدًّا واتهمْتِني بأنّني، دائمًا، أفسدُ كلّ شيء. كانتْ ماريسا تريدُ الذهابَ إلى روما فوعدتُها أنّنا سنفعلُ حالَ خروجها من المشفى، وقدْ

خطّطنا لبقائها في بيتكِ بعضَ الوقتِ تعلّمني أثناءه طريقتها الشهيرة في صُنع حساءِ الغاثباتشو وفطائرها الخرافيّة، فلم تكن عودتُها للعيشِ وحيدةً في كاداكس مقبولةً. ولكنّ الأوان قد فات حينها. وإضافة إلى ذلك، لم أكنْ حاضرةً هناكَ لحظةَ موتها المُفاجئ، ولا في اليوميْن اللذيْن سبقاه، فلمْ أكنْ واعية بأنّ الحياةَ أسرعُ في المشفى بكثيرٍ ممّا هي عليه خارجَه، وبأنّ الذّبالاتِ تحترقُ فيها بسرعة أكبر، وبأنّ الحياةَ والموتَ، مثل الجوّاب الكبير وذئب السهول[1] في الرسوم المتحرّكة، يتسابقانِ بجنونٍ في أروقةِ المشفى المعقّمةِ، ويتجاوزانِ الممرّضاتِ والزّوار، مسعوريْنِ هائجيْن، ضاربيْنِ بقوانين السّيرِ عرض الحائطِ، ومفسديْن عليْنا حياتنا. لعلّ لدى كلٍّ منّا رحلةً مّا معلّقةً، لعلّنا نخطّط لرحلاتٍ نعرفُ أنّها باتتْ مستحيلة، كأنّنا نحاولُ شراءَ وقتٍ، حتّى بعدَ معرفتنا بنفاد الوقت المخصّص لنا، وألاّ أحدَ بوسعهِ إهداؤنا ولو دقيقةً إضافيّة أخرى. لا شكّ في أنّه أمرٌ لا يُطاقُ، أنْ تظلّ عيناكَ مفتوحتيْن في الوقت الذي أصبحتَ فيه تُدركُ تمامًا أنّه ثمّةَ أماكن لنْ تعودَ لرؤيتها أبدًا، وأنّ الاحتمالاتِ أخذتْ تنطفئُ قبلَ أن تنطفئَ عيناك.

حينَ صارَ إدغار في أعلى الدّرج، نظرَ إلينا شزرًا وقالَ متلعثمًا:

- أشعرُ بالجوع. «هل ننطلق»؟

بعد لحظةٍ، صعد دانيال ونيكولاس، بصحبةِ أورسولا التي نظرتْ إلى ثلاثتنا وقالت:

---

(1) الجوّاب الكبيرُ وذئبُ السهول أو (وايل.اي ورود رنار) هما شخصيّتان متخيّلتان في مسلسل رسوم متحركة أمريكي أنتج عام (1949).

- كم أنتُنّ جميلات!

كانتْ صوفيا ترتدي فستانًا هنديًّا بلون النّبيذ، طويلًا يصلُ إلى القدمين، مزركشًا بمرايا دائريّة صغيرة جدًّا، اشترتْه من دكّان تحفٍ وأثريّات، وقرطيْنِ كبيريْنِ من الفضّة. أمّا أنا فكنتُ أرتدي بنطالي الفوشيا القطنيّ الذي أفضّله، وقميصًا باليًا من الحرير الأسودِ المزيّنِ بنقاطٍ خضراء، وخفًّا، وسوارًا عتيقًا لأميّ، أحبّه حينا، ولكنه يثقلُ عليّ أحيانا أخرى كما لو كان أغلالًا. وكانت إليسا تلبسُ كأنّنا ذاهبون إلى حَفلة سالسا. وأمّا أورسولا فكانت ترتدي تي-شيرت أصفرَ ضيّقًا مزيّنًا بنخلاتٍ فضيّةٍ صغيرة وبنطالًا بنفسجيًّا أصغرَ من مقاسها مرّتين. كنّا نبدو مثلَ فرقةِ مُهرّجين. ولحسنِ الحظّ فإنّ الأولاد بقمصانهم البولو وبناطيلهم البارمودا وأخفافهم، قد أضفوا علينا نوعًا من الاعتبارِ الخاصّ بالمصطافين.

لكارولينا وبيب شقّةٌ صغيرةٌ تقعُ أعلى بيتنا تمامًا، وهي جزءٌ من تجمّعٍ سكنيّ صيفيّ بُنيتْ هي الأخرى في بداية السبعينات بكثيرٍ من الإسمنتِ المطليّ بالأبيض، والسلالم الخشبيّة الضاربةِ إلى الأحمر والممرّاتِ الطويلةِ والنّوافذ الكبيرةِ المطلّة على المشاهد الخلاّبةِ وعلى الخليج. كانت الشّقق أثناء طفولتي، تتحوّلُ إلى ما يشبهُ قريةً للهيبيّين، تشغلها شخصيّاتٌ مختلفةُ الأشكال والألوانِ من العالم كلّه، وأتذكّر أنّني كنتُ أذهبُ إلى النّومِ كلّ ليلةٍ على وقعِ أنغامِ الموسيقى والضّحكاتِ والصيحاتِ الصادرةِ عن تلك المجموعةِ من المصطافين الجميلينَ المُهمّشين، الذين يعودون إلى هولاندا أو

الولايات المتّحدة أو ألمانيا، حالما ينتهي الصّيف، وكنتُ أجدهم الأكثرَ سحرًا وغرائبيّةً في العالم. كبرتُ، وشاخَ الهيبيّون وامتلأت الشّقّقُ بناسِ أعوامِ التسعينات الجدد، الوقورينَ الأغنياء. لكنّنا نحنُ، الذينَ حالفنا الحظُّ بأنْ نلمحَ آخرَ ذيولِ الستينات من ثقب طفولتنا -حيثُ الحريّةُ الجنسيّة، وحريّةُ أيّ شيءٍ، والرّغبةُ في التمتّع، وسلطةُ الشّباب، والجرأة- لم نخرج سالمين. إنّ لكلٍّ منّا جنّته المفقودة التي لم يطأها يومًا.

كان بيب وهوغو يعدّان العشاء، مرتديَيْن ملابس المساء الصيفيّة. كان بيب يرتدي بنطالًا أسود وتي-شيرتا حائل اللّون تمامًا، وكان هوغو يرتدي قميصًا أبيضَ مشمّر الكمّين. وقد اسمرّت بشرتاهما بفعلِ الشّمس. كانَ هوغو يضعُ سوارًا من الكتّان، ويفوحُ منه القليل من عطر البتشول[1] والفانيلّا. وهو يمارسُ رياضةَ المشي ويعملُ في ما يشبهُ إدراةَ شركة. وكانَ بيب مصوّرًا، حليق الرّأس، له صوتٌ عميقٌ، ممشوق القامةِ، حسّاسا، ظريفا ومرحا. والجليّ أنّهما صديقانِ منذ وقتٍ طويل، يبدأُ أحدُهما النكتةَ فيُنهيها الآخر، ويتمازحان، وينادي كلّ منهما الآخر: «يا صاحبي». ما من شروخٍ ولا شكوك في علاقتهما، يلتقيان كلّ أسبوعٍ لمشاهدة كرة القدم وتناول البيرّة. يتملّكني، أحيانًا، شيءٌ من الحسدِ إزاء الصداقاتِ الذّكوريّة، فهي إنْ نظرتَ إليها من الخارج تبدوُ لكَ دربًا أسهلَ بكثيرٍ من دربِ الصداقةِ بين النساءِ وأبسط منه. فالصداقة بيننا نحنُ النساء مثل فترة خطوبةٍ

---

(1) نباتٌ يعرفه الناس منذ قرونٍ طويلةٍ وهو أشهر بخور عُرفَ في أمريكا في الستينات.

أبديّةٍ، مكثّفةٍ مُتقلّبةٍ ومليئةٍ بالشّغف، أمّا صداقتهم فتشبهُ، غالبًا، الزواجَ المُنسجم، بلا عواطف كبرى ربّما، ولكنْ بلا تقلّباتٍ كبرى أيضًا.

- ألا تشعرون بالجوع؟ سألَ بيبْ الأطفال.

- كثيرًا. أجابت صوفيا، وقد بدأت بصحن الحمّص متلهّفةً.

جلسنا إلى طاولةِ الحديقة، وفتحَ هوغو زجاجةَ النّبيذ وجلس إلى جانبي، مبتسِمًا. وقال:

- أنت جميلةٌ جدًّا.

- مع أنّ ابني نيكولاس قال لي هذا الصّباح إنّ وجهي يشبه طعام القطط. والأطفالُ لا يكذبون أبدًا.

- هذه مجرّدُ خرافة. فالأطفالُ يكذبون مثلهم مثلَ الكبار تمامًا.

- معكَ حقّ. فأنا أكذب كثيرًا، وهو ليس أسوأ عيوبي.

وأخذنا نضحكُ كِلانا. وقالَ إنّ علينا الذهابَ للعشاءِ وحدنا فحاولتُ إقناعه أنّ حالتي يُرثى لها وأنّ الأمر لا يستحقُّ عناءَ دعوتي إلى العشاء. إنّ تقنيّةَ الإغواء الذكوريّة المتمثّلةَ في التّعدادِ الخادعِ للعيوب الشخصيّة (أنا مُدمّرٌ، فلا تضيّعي الوقت معي) صالحةٌ إلى حدّ بعيدٍ، لاحظتُ ذلك مُبتهجةً وأنا آكلُ وألعب بهاتفي النقّال. لم أعد، الآن، أضيّعه كلّ يومٍ. فقد تحوّلَ الهاتفُ النقّالُ أثناءَ مرضكِ وموتكِ، إلى شيءٍ شيطانيٍّ. وصارَ رسولَ معاناتكِ واحتضارك. كنتِ تتّصلينَ في الفجر طالبة منيّ القدوم إلى بيْتك لتخبريني أنّك

تشعرين بالخوف، وأنّ الخادمةَ تريدُ قتلَك. قد يكون ذلك صحيحًا من ناحيةٍ مّا. فلا أدري كم عددُ الجليساتِ اللاّتي مررْن بك في الأشهر الأخيرة، لكنّني صرتُ خبيرةً في إجراء المقابلات مع عددٍ من المرشّحات المُحتملات، ولم يكن أغلبهنّ يحتملْنَ الوضع أكثر من شهر. لأنّك لا تدعيهِنّ ينمْنَ ولو لدقيقةٍ واحدة، وكنت تسرقين منهنّ الدّواء، وكانت الحبوب مبعثرة على الأرض في كلّ أنحاء البيت، بينَ ملاءاتكِ، وبينَ أوراقك، وبين صفحاتِ الكتب، إلى حدّ أنّني قلقتُ على صحّة الكلاب؛ فقد كنتِ تطردينَها مرّتيْن أو ثلاثا في اليوم، ثم ينتهي بك الأمرُ إلى صفعِ إحداهنّ. ما أحزنَ أنْ تكوني أنتِ بطلةَ هذا الهُراء كلّه. لو أنّ أحدًا من معارفنا قد روى لكلتيْنا هذه الأشياء، في الأزمانِ الجميلةِ، لِمتنا من الضحك. كان الضّحكُ سلاحَنا الوحيد، على الدّوام، ضدّ البؤس والشّقاء. وقد حوّلك المرضُ والألم اللّذان أكد بعض الأطبّاء أنّك تخترعينهما، إلى وحشٍ من الأنانيّة. حينَ كنتُ أخبرك بعدم قدرتي على ترك الولديْن وحدَهما في الرابعةِ صباحًا، كنتِ تغضبين وتُغلقين الهاتف في وجهي. وكانت أغلب الحوارات التي دارت بيننا في الشهور الأخيرة، تنتهي على هذا النّحو. كلّما رنَّ الهاتفُ ووجدت أنّك المتّصلة، ارتجفَ قلبي، وانتهى بي المطافُ إلى إغلاقه. كنتُ أغفلُ عن شحنِه، أنساه في كلّ الأمكنة، وأضيّعه عن عمد. كنتُ أقول لنفسي، بينما أضغط على مفتاح قبول المكالمة: ستتصلُ اليومَ كي تخبرني بأنّها تحبّني وحسب، وأنّها تشعر بإهمالها لي، فإذ بكِ تتّصلين للحديث عن النّقود وللومي على إهمالي لك. لقد فعلتُ ما بوسعي، قمتُ أحيانًا -وليس دائمًا- بما كان عليّ

القيام به. فلستُ ضليعةً كفايةً في مواجهة البؤس. أعتذرُ منكِ. ربّما لو كنتِ مكاني لأبليتِ خيرًا منّي. كنتِ، على مدى أعوام، تقولينَ إنّكِ لم تحبّي أمَّك، كنتِ تعتقدين أنّها لم تكنْ شخصًا طيّبًا، وأنّها لم تحبّكِ يومًا. ولم تغيّري رأيك سوى مؤخّرًا. في أيّامكِ الأخيرةِ في المشفى، كنتِ تنادينني في مرّات كثيرة «يا أميّ».

كانَ موتُ جدّتي جليلًا وصامتًا، أنيقًا وشجاعًا، كما يليقُ بمكانتها وشخصيّتها. أمّا موتكِ فكان صاخبًا فوضويًا. لا أحدَ يُنبّهُكَ أنّ عليك أنْ تصيرَ أمًّا لأُمّك، في احتضارِها. هذه هي الحقيقة. ولا يُمكنُ القولُ يا أمّي، إنّكِ -كابنةٍ لي- قدْ نلتِ رضايَ بما يكفي. هذه هي الحقيقة. لم تكوني ابنةً سهلةً أبدًا. لكنّ الهاتفَ النقّالَ استعادَ وظيفته كوسيلةٍ للمرح، منذ ظهور سانتي مجدّدًا. وقد صِرنا، منذ الآن، على بعدِ رسالةٍ ممّا قد يحدث، وما قد يحدثُ هو، دائمًا، أكثرُ إثارةً ممّا يحدث الآن. يُعجبني الجنسُ لأنّه يثبّتني في الحاضر. وهكذا يفعلُ موتكِ أيضًا. أمّا سانتي فلا، إنّه كالهاتف النقّال تمامًا. ومعه، أكون، دائمًا، في انتظارِ شيء رائعٍ لا يجيء أبدًا. حين عرفتهُ، كان قد انفصلَ عن زوجته التي كانتْ تعيشُ قصّةَ حبٍّ مع أحد أصدقائه. لكنّ القصّة مع الصديق لم تنجح. أمّا سانتي، الإنسانُ الطيّبُ، فقد عاد إلى بيْته، وكان مستعدًّا لمداواةِ جراح زوجته واستعادة علاقةٍ كان قد انتهى بها المطافُ إلى استبدال راحةِ البال والصحبةِ والأولاد، بالجنسِ، والفضولِ تجاهَ الآخر والإعجاب به. أمّا حبُّنا الذي ما إنْ مضى عليه شهران حتّى بدأ يحتضر -إذ أنّ معظم قصص الحبّ تدومُ إمّا شهريْن أو حياةً بأكملها- فقد انتعش مُجدّدًا في حُمّى البحثِ عن

المستحيل، واللاّمدرَك، والأسطوريّ. ولقد تجرّعناه على مضضٍ. لعدَمِ عثوري، خلال تلك الأشهر، على من ينالُ إعجابي أكثر منه، لإدراكه سريعًا أنّه كان وزوجتَه يستعيدانِ قصّتهما، ولكنْ من النقطة ذاتها التي تركاها عندها تحديدا، من الصفحةِ الأخيرة قبلَ إغلاق الكتاب. ما من رجعةٍ إلى الوراء في قصصِ الحبّ، فالعلاقةُ الغراميّة هي، على الدّوام، طريقٌ في اتّجاه واحد.

تلقّيتُ رسالةً منه، في تلكَ اللّحظةِ. لقد وصل توًّا، ويرغبُ في رؤيتي بشدّة. فأفْسحَ عقلي، حينها، خطوةً لجسدي، وابتعدَ موتُكِ خطواتٍ، وبدأ دمي المتجمّدُ يجري في عروقي من جديد، كما يحدث في فنون السّحر. صرتُ أُمازحُ الأولاد وأتشمّمُ رائحة الطعامِ باستمتاع، وأجلسُ على الأرضِ كي ألعب مع ابنتي بالعماد، وأحضنُ صوفيا، وأهمسُ في أذُن بيب بأنّ في حوزتنا جبلًا من الماريغوانا، وأداعبُ القطّ، وأتناولُ حبّاتِ الزيتون واحدةً تلو الأخرى كالمجنونة، وأُجبرُ الجميعَ على الخروجِ إلى الحديقةِ لمشاهدة القمر، وأُشغّلُ الموسيقى وأقتربُ من إليسا لأخبرها بأنّ علَيْنا الخروج للرّقص.

- لقد بعثَ لي برسالة. قلتُ لصوفيا هامسةً.

- حزِرتُ ذلك. فقد تغيّرت ملامحُكِ فجأة.

- هو غريبٌ في الواقع، بل إنّه لا يعجبني.

- بلانكيتا، أعتقدُ أنّه يعجبك بقدرٍ أكبر مما تريدين الاعتراف به.

- لا أدري. ربّما.

تناولنا العشاء على طاولةِ الحديقة. أشعلوا شموعًا ومصابيح ورقيّةً صينيّةً كانتْ تتأرجحُ بين أغصانِ شجرة الزّيتون وتُلقي بظلالها على قُشور السّمك المنظّفِ والمملّح الذي أعدّه الرّجال. ثمّة أيضًا سلطة طماطم وفلفل وفطائرُ وخبزٌ بالزيتون خارجٌ لتوّه من الفرن. كان الأطفالُ والكبارُ هناكَ مُبتهجين، ببشرتهم التي لوّحتها الشمسُ، وبأجسادهم المتثاقلةِ المُتعبةِ وعيونهم الناعسةِ لفرطِ الإبحارِ طيلةَ النّهار تحتَ الشّمس. وبنكاتهم المُتبادلةِ التي ما تزال تثيرُ إعجابهَم رغم تكرارها ألف مرّة، مثلما يحدثُ بيْنَ أولئكَ الذين مضى على صحبتهم وقتٌ طويلٌ. خطر لي، للحظةٍ، أنْ أتناولَ القهوةَ في هدوءٍ وألاّ أردّ على الرّسالة. كانت نينا، ابنتي بالعمادِ تنامُ في حضنِ أمّها. أمّا إدغار فقد حاولَ أنْ يصبّ لنفسهِ بعضَ البيرّة خِلسةً، لكنّ إليسا نظرتْ إليه نظرةً مُهدّدةً ناهية. وكان يُصغي باهتمامٍ إلى حديث الكبار فيما يلعبُ الصّغيرُ داني بلعبة القطار. اتّهمني هوغو بأنّني مملّة. وتولّتْ كارولينا مهمّةَ الدّفاع عنّي وأخذ بيب يروي قصصًا عن صاحباتِ هوغو المسكينات اللاتي كانَ يتركهنّ وحيداتٍ كلّ يومٍ عند الفجر كي يتمكّنَ من قطعِ شوط المشيِ الصبّاحي المقدّس لديه. لا أدري إنْ كانَ للحياة أيُّ معنىً جديرٍ بالذكر دون هذه الليالي الصّيفيّة. وما هيَ إلاّ لحظةٌ حتّى تلقّيتُ رسالةً أخرى من سانتي يقترحُ عليّ فيها أنْ نلتقي أمامَ الكنيسة كي يمنحني قبلَة المساء. فانتصبتُ قائمةً، كما لو كنتُ مدفوعةً بنابض.

- عليّ أنْ أذهب للحظة. وسأعود حالًا.

- هل حدثَ شيءٌ يا عزيزتي؟ هل أنتِ بخير؟ سألت كارولينا وقد بدا على وجهها القلق.

- نعم، نعم، كلّ خير. فقط أريدُ أنْ أجلبَ السجائر. وأفلتت منّي ضحكة.

- الآن!! قالت صوفيا.

نظرتْ إليّ كارولينا، دون أنْ تبتسم، من الطّرف الآخر للطّاولة. إنّها الوحيدة، بيننا، التي تحافظُ على علاقةٍ طويلةٍ مع رجلٍ رائع، وأعرفُ -مع أنّها لم تقل لي ذلك يومًا- أنّها تَجِدُ في خروجي مع رجلٍ متزوّجٍ، فضلًا عن كونه مضيعةً للوقت، تهديدًا لها بعضَ الشّيء.

نظرَ إليّ هوغو مشيرًا إلى علُبةِ السّجائر نصف الممتلئة التي تركتُها منذ لحظاتٍ على الطّاولة.

- هذه السجائرُ جافّة، لا تصلح. قلت.

أخذ يضحك.

- حين أخبرتني بأنّكِ معتادةٌ على الكذب، اعتقدتُ أنّك تجيدنه بطريقة أفضل من هذه.

- أجتهدُ بما أقدرُ عليه.

- لا تتأخّري، فسنشعرُ بالملَل من دونك. أردف قائلًا.

ورافقتني صوفيا إلى الباب.

- أرى أنّه لا يعجبكُ البتّة! ها! لا يعجبك أبدًا.

9

نزلتُ التلّة متقافزةً. كنتِ تقولينَ، دومًا، إنّني أمشي مثلَ أبي، نمشي وكأنّ شيئًا يدفعُنا إلى الأعلى، كأنّنا لا نكادُ نلمسُ الأرض، وإنّك كنتِ تعرفيننا، حتّى قبلَ أنْ يظهر وجهانا لكِ، من طريقةِ مشينا التي لا تضلّك أبدًا. ومازلتُ أتذكّرُ غضبكِ ذاتَ يومٍ، وكنتُ في الأشهر الأخيرةِ من حملي الأوّل، حينَ رأيتني أمشي بطريقةٍ أقلّ رشاقةً.

«لا تقولي لي إنّك، في هذه المرحلة، ولمجرّد أنّكِ حاملٌ، ستكفّين عن المشي مثلما كنتِ تمشينَ طوال عمرك!».

كُنت تعرفينَ، آنذاك، بمجرّدِ النظرِ إليّ، أنّني على موعدٍ مع رجل. لم تكبحيني يومًا، كنتِ ترينَ أنّ الحُبّ يُسوّغُ بعض التصرّفات التي كنُتِ، في ظروفٍ أخرى، تحظرينها بلا شكّ. إنْ حدثَ وأخطأ نادلٌ في طلبكِ أو دلقَ الحساءَ على ملابسكِ، وذهبتِ تشتكين، فأخبركِ صاحبُ المحلّ بأنّه عاشقٌ (لك وحدك كانوا يروون أشياءهم الحميمةَ بهذه السهولة) نظرْتِ إليه متعاطفةً وقُلتِ: «آه حسنًا، في حالتك هذه...» ثمّ تواصلينَ الأكل بكلّ هدوءٍ وتنورتك مبلّلةٌ بالحساء. لكنْ إذا أدْلى أحدهم، في حضوركِ، بمعلومةٍ اتّضح

أنّها خاطئة أو وصلَ متأخّرًا إلى الاجتماع، كنت تنظرينَ إليه مصدومةً ولا يحظى بعدها باحترامكِ أبدًا. ولقد أمضيتُ حياتي كلَّها أكافح من أجلِ الظّفر به، ولستُ واثقةً من نجاحي في ذلك. وها أنا ما أزال أصلُ متأخرةً إلى كلّ الأمكنة.

رأيتُ الوسيمَ الغريبَ، فجأةً، يقتربُ منّي بخطى واسعة. كان يمشي وحدَه مُنحنيًا قليلًا إلى الأمام، كما يفعلُ الرّجالُ النحيلون طوالُ القامةِ، عادةً، كأنّهم يحتمونَ من ريحٍ خفيّةٍ، وكأنّ الريحَ تهبُّ دومًا في الأعالي التي يسكنونها. كنتُ مُسرعةً جدًّا في مِشيتي وشديدةَ التوتّر حتّى أنّ فردةَ حذائي أفلتت منّي غصبًا. واستعدتُها على الفورِ فتبيّنَ لي أنّه انتبه لما حدثَ وابتسمَ مستمتعًا بالمشهد. مرّةً أخرى، وداعًا للـ femme fatale[1] التي كنتُ أودُّ أنْ أكونها. ابتسمتُ له، وحينَ تواجهنْا، همسَ «وداعًا سندريلاّ». قلتُ لنفسي ماذا لو توقّفتُ ودعوتُه لنتناولَ شيئًا معًا ثمّ نشرب حتّى السُّكر ويروي كلّ منا حياته للآخر بشغفٍ ويلمس يديْه وركبتيْه بلا قصدٍ وينظرُ في عيْنيه أطولَ ممّا هو مقبولٌ في المعتاد، ونتبادل القبلَ ونتطارح الغرامَ في ركنٍ مّا من القريةِ كما في أيّام الشبابِ، ونعشقُ ونسافرُ ونبقى معًا إلى الأبدِ وننام مُتشابكيْنِ ونُنجب طفليْنِ آخريْنِ، وفي النهاية، نحقّقُ خلاصَنا. لكنّني تابعتُ سيْري دون أنْ ألتفتَ ورائي. لو أنّ الرّجالَ يعرفونَ كم مرّةً يعبرُ هذا الشريطُ أذهاننا، نحنُ النساءَ، لما جرؤوا حتّى على طلب ولاّعة سجائر منّا.

---

(1) بالفرنسيّةِ في الأصل وتعني «الفاتنة التي لا تقاوم».

كانَ سانتي يقفُ عندَ بوّابةِ الكنيسة. وكنتُ سعيدةً جدًّا برؤيته حتّى أنّني لم أكدْ ألمحُ أنّه باتَ أكثرَ نحولًا ممّا كان عليه آخرَ مرّةٍ رأيته فيها، وأنّه يبدو متعبًا، وقد عادَ إلى تدخين الحشيش بلا شكّ. نظر إليّ بعينيهِ اللامعتين وابتسامته العريضة.

- كم لوّحتكَ الشّمس.

- هذا صحيح. -أجاب-. وكيف حالكِ؟

- بخير.

بقيْنا صامتيْن للحظات، نتبادلُ النظراتِ ونبتسمُ، وقد تملّكنا الخجلُ فجأةً ولم نعرف ماذا نقولُ، كما لو كان مجرّدُ وجودنا الواحدَ أمامَ الآخر من جديدٍ هو الأمرُ الأكثرُ إدهاشًا في العالم.

- والولدان؟

- بخير، سعيدانَ بوجودهما هنا.

- هل يفتقدان جدّتهَما؟

- أعتقدُ ذلك. كانا يعشقانها، ويستمتعان جدًّا بصحبتها، لكنّهما لا يقولان شيئًا، هما مهذّبان للغاية، وكتومانِ جدًّا.

- مثل أمّهِما.

- وأبناؤك؟ كيف حالهم؟

- سعداء. عليك أنْ تريْ ابني الأكبر خاصّة، إنّه رائع، لكنّني بتُّ أشعرُ مؤخّرًا أنّني أصرخُ في وجوههم طوال اليوم.

- أفهمُ ذلك! كم عمر ابنكَ الأكبر؟ عشرة أعوام؟

- تسعة.

- آها!

- أنتِ جميلةٌ جدًّا.

- شكرًا. أنتَ كذلك. هلاّ أعطيْتَني سيجارة؟

لمس يدي حينَ قرّبَ إليّ الولاّعة. وبهذه الحركةِ خرجْنا من فُسحة المدرسة ونزعنا عنّا الجلدَ الرّقيق لمراهقيْن مُرتبكيْنِ وعاشقيْنِ، كي نصبحَ من جديدٍ بالغيْن بجلدٍ بالٍ، مجنونيْنِ يقيمان علاقةً طويلةً غير مشروعة.

- ليسَ لديّ الكثير من الوقت. قلتُ إنّني سأذهبُ لشراء السّجائر. أردتُ أنْ أطْمئنّ عليكِ فحسب. وينبغي أنْ أعودَ سريعًا.

- أليس لديْنا الوقتُ حتّى لتناولِ شيء معًا؟

- كلاّ. أودّ ذلك. لكنّهم يقيمون حفلةَ شواءٍ كبيرة على الشاطيء وسيلاحظون اختفائي في أيّة لحظة.

وتظاهر، هو أيضًا، بعدمِ رؤيةِ الخيْبةِ في عينيّ.

- ومتى سنلتقي ثانيةً؟

- حسنًا، لا أدري، يومًا مّا.

- يا لكَ من لئيم.

- ألم أقل لك إنّك جميلةٌ جدًّا هذه الليلة؟

دخّنتُ بصمْت. أخذني من بنطالي ورفعَه إلى خصري. ثمّ لفّني كما لو كنتُ لعبةً كي ينظرَ إلى مؤخّرتي.

- هل سترتدينَ يومًا بنطالًا على مقاسكِ تمامًا؟

- أشكّ في ذلك.

- وماذا عن الليغنغز؟[1] ستكونين جذّابةً جدًّا به.

- صحيح.

- ومن الجِلْد أيضًا.

أخذنا نضحك.

- فكرةٌ جيّدة. غدًا سأشتري لي واحدًا منها.

ثمّ قبلّني وهو ما يزالُ ممسكًا ببنطالي.

- لا أريدك أنْ تغضبي منّي. أتفهمين؟ لا أحتملُ أنْ تغضبي منّي. فهذا يُكدّرني.

أخذتُ أضحكُ من جديد وقلت:

- بلْ يُكدّرك كثيرًا.

- اضحكي، اضحكي. لكنّها الحقيقةُ.

- لستُ غاضبةً. قلت.

لكنّني بدأتُ أعدُّ في ذهني الدّقائق التي تبقّتْ قبل أنْ يذهب

(1) بناطيل نسائيّة ضيقة ولصيقة.

وأبقى وحيدةً، فيُهاجمني موتكِ مرّةً أخرى ويبدأ كلُّ شيءٍ من جديد. إنّ كلّ الحبّ الذي يمنحني إيّاه الأصدقاءُ وولداي لا يكفي لمقاومةِ هجمةِ غيابك عليّ، أحتاجُ أنْ أتعلّقَ جيّدًا برجُلٍ كيْ لا أتشظّى. يقولون إنّ معظم النساءِ يبحثنَ في الرّجال عن أبيهنَّ، لكنّني أبحثُ عنكِ. وكنتُ أفعلُ ذلك حتّى وأنتِ على قيد الحياة. وكانَ يُمكنُ لأيّ طبيبٍ نفسيٍّ غيرِ نزيهٍ أنْ يثْري على حسابي، لكنّ طبيبي لم يكن يشغله سوى أنْ أعثرَ على عمل.

– فيمَ تفكّرين؟ تكونين في لحظةٍ هنا، وفي اللحظةِ التالية تصبحينَ في مكانٍ آخر، بعيدًا.

– أعتقدُ أنّني متعبة.

– متعبة ممّ؟

– لا أعرف. من كلّ شيء. من النّهار، من الصيف، فهو مُتعِبٌ. أعتقدُ أنّني بحاجةٍ إلى النوم.

– أتلاحظينَ أنّنا لم ننم معًا حتّى الآن؟ حسنًا، مرّةَ واحدة، في لقاءاتنا الأولى، وفي اليوم التالي أعددْتُ لكِ الفطور.

– لا أتذكّرُ. ولكن يسرّني جدًّا أنْ أنام معك. النّومُ بمعنى النّوم أقصد.

– لكن قد يكون هناك اغتصابٌ ليليّ.

– غير أنّه لن يكونَ اغتصابًا.

ودّعني. وكما هو الحالُ دومًا، لم نتفّق على موعدٍ أو ترتيب.

بقيتُ واقفةً للحظة، عند مدخل الكنيسة. ووصلتْ احتفالاتُ القريةِ الصاخبةُ إلى مسمعي، في ذروة الهيجانِ الصيفيّ، وتساءلتُ من يحتلُّ الآنَ الفرونتيرا؟[1] وأيُّ فرقة مجانين مخدّرينَ ستذهبُ لرؤية طلوع الفجر من مطعم كاب دي كروس[2] وهل ظلّتْ Should I stay should I go[3] آخرَ أغنيةٍ يضعها مطعم الهوستال كلّ ليلةٍ قبلَ أنْ يغلقَ أبوابه. إنّ أوّل مملكةٍ نضيّعها، وربما تكون الوحيدةَ التي يتعذّرُ استعادتُها، هي الشباب. أمّا مملكةُ الطفولةِ فلا يُعتدُّ بها، لأنّنا ونحن أطفالٌ لا نكونُ واعينَ بتلك الغنيمة الرائعةِ من الطاقة والقوّةِ والجمال والحريّة والبراءة التي نكونُ قدْ جنيْناها عبرَ سنواتِنا الأولى، وأنّ الأكثر حظًّا من بيْننا سوف يبذّرونها بلا حدود.

حينَ وصلتُ إلي البيْت، كان الجميعُ قد آوى إلى فراشه. دخلتُ بصمتٍ إلى غرفة صوفيا والصّغيرِ داني، الغرفةِ ذاتِ الأسرّة المركّبة. أماكن الإقامةِ الصيفيّة كلّها شبيهةٌ إلى حدّ مّا بمخيّم عطلة صيفيّ: طاولةُ الخشبِ الكبيرةُ التي نتجمّعُ حولها وقتَ الفطور في حالِ استيقظنا باكرًا، بهجةُ اللّقاء بالأصدقاءِ منذ السّاعةِ الأولى من الصباح، مرتدينَ البيجاما أو ثوب الاستحمام، وعيوننا ناعسةٌ، مصابين بصداع الثمالة أو مشرقين، ضاحكين على ما فعلناه في اليومِ السابق، نعدُّ مشروبَ الكاكاو للأطفال ونتناقشُ حول ما إذا كانَ الوقتُ مازال باكرًا على تناول البيرّة، والاستحمام على الدّور،

---

(1) مقهى شهير في كاداكس.
(2) تقعُ في الشرق الأقصى لشبه جزيرة إيبيريا وفيها مطعم شهير باسمها.
(3) بالإنجليزيّة في الأصل.

وصراخ آخرِ المستحمّين حينَ يسقطُ عليه الماءُ الباردُ بعد أنْ نفدَ الساخن، المناشفُ المصفوفة على الحبل، الحائلةُ والمتيبّسة بسبب ملح البحر، وقد تُركتْ لتجفّ تحت الشّمس، والغرفُ ذاتُ السّرائر المركّبة من أجل استغلال أكبر قدرٍ من المساحة واحتواء أكبر عددٍ ممكنٍ من الأصدقاء. اندسسْتُ في فراش صوفيا.

– لا أشعرُ بالنّعاس. همستُ في أذنها.

– ماذا، ماذا، ماذا يحدث يا داني؟ وتلقّيتُ ضربةً على وجهي.

-كلاّ، كلاّ، هذه أنا. وصلتُ من فوري.

– وكيفَ كان اللّقاء. سألتْ، نازعةً غطاء العينيْن الساتان الورديّ ومعدّلةً من جِلستها في الفراش قليلًا.

– كان جيّدًا، جيّدًا. كالعادة، تحدّثنا قليلًا ثمّ كانَ عليه أنْ ينصرف.

– هكذا، فورًا؟

– والآن لا أشعرُ بالنّعاس.

– أكيد، هذا أمرٌ طبيعيّ، بما أنّك لم تتمكّني من مطارحته الغرام. فعلاقةُ الجنسِ الخائبة تؤرّقُ كثيرًا. أمّا أنا فقد تأخرتُ ساعةً كاملةً في انتظارِ أنْ ينامَ دانيل، ولم أكنْ أتبادلُ القبلَ مع أيّ رجلٍ والآنَ، أشعر بالنّعاس.

أخذ داني يتقلّبُ في فراشه.

– إنْ أيقظْته، سأقتلك. همست صوفيا.

- أينْ هي روحكِ الصيفيّة؟

- نائمةٌ. أجابتْ وهي تعيدُ القناعَ إلى عينيْها.

بقيتُ مُستلقيةً للحظةً إلى جانبها، راجيةً أنْ تتذكّر أنّني يتيمةٌ مسكينةٌ تحتاجُ لمنْ يهتمّ بها، لكنْ ما هي إلاّ دقائقُ حتّى كفّ داني عن الاضطراب وبدأت هي تشخرُ بهدوء.

ذهبتُ إلى غُرفتي، وتساءلتُ ما الذي كان يفعله الوسيمُ الغريب في تلك اللحظة: ربّما مثلما كنتُ أفعل.

10

في الصّباح التّالي، أيقظني نباحُ الكلاب. بقيتُ متكوّرةً في الفراش وفكّرتُ في أنّ الصوتَ قادمٌ من الشارع، ربما يكون الكلبُ ري قد جاء يبحثُ عنّي. كان لدينا خمسةُ كلابٍ في البيت، ثلاثةٌ لنا وواحدٌ للفتاةِ التي كانتْ تساعدُنا، وكُنتِ قد جلبتِه من الشارع وأنقذتِه -أتذكّر فترةً كُنت تخرجينَ فيها إلى الشّارع واضعة طوقًا في حقيبتك في حالِ صادفتِ كلبًا ضالاًّ- والخامسُ يعودُ لأحدِ ضيوفك. قطيعٌ حقيقيٌّ من الكلاب كانَ مصدرَ متعةٍ لك، وقد شكّل حاشيةً موازية لحاشية الأصدقاء. وفي الحقيقة، كان إذا جرُؤَ أحد ضيوفكِ على التذمّرِ أو تقطيبِ حاجبيْه أمامَ هجمات الكلاب أو قال إنّها تخيفه -وهو الأسوأ-، اتُّهِمَ على الفور بالسخافةِ والبلاهةِ المطلقة ولم يَعُدْ يُدعى إلى البيتِ أبدًا، إلاّ إذا أسعفته مواهبه في لعبِ البوكِر لينال شفاعتك. أتذكّرُ امرأة شديدةَ التأنّقِ كانتْ تحضرُ لِلعبِ الورق وكنتِ تتركين لها منشفة نظيفةً ومطويّةً بعنايةٍ على مسندِ الكرسيّ كي تضعها على ساقيها، فتحمي نفسها، هكذا، من لمساتِ الكلاب ولعقاتها وأيّة جراثيمَ قدْ تنقلها.

عندها سمعتُ صوتَ غيليم ينادي بقوّة. كانَ قد وصلَ لتوّه مع باتوم. وقبلَ أنْ أفتحَ الستارةَ عرفتُ من الضوء النّافذِ منها أنّ

الطّقسَ رائعٌ اليوم. وكنُت سأذهبُ إلى المقبرةِ لزيارتكِ. ارتديْتُ أحدَ ثيابي الحريريّة المُدعوكَة الموضوعة كيفما اتّفق فوقَ المقعدِ الوحيد في الغرفة. لم تعدْ الملابسُ -التي كانتْ فيما سبقَ شغفي الأوّل- تُمْتعني هي الأخرى. وعلى الرّغمِ من الحرّ، كنتُ لا أرغبُ إلاّ في شراءِ ما يكسوني ويلامسُ جِلدي. على كلّ حالٍ، فإنّ الملابسَ بديلٌ عن الجنس، أو غطاءٌ للحصولِ عليه. ولربّما كانتْ كلُّ الأشياءِ بديلًا عن الجنس: الطعامُ والمالُ والبحر والسّلطة. فتحتُ الستارةَ قليلًا تاركةً شمسَ الصّيفِ الفتيّةَ الجسورةَ المماثلةَ تمامًا لشمسِ طفولتي، تنتشرُ في الغرفة.

وصلني غيليم محُمّلًا بصناديق الخضار. وقالَ حينَ رآني:

- بسرعة أورسولا! خبّئيها قبل أنْ تُلقي بها بلانكا في القُمامة. فأنا أعرفها.

- يُسعدني حضورك. قلتُ له وأنا أعانقه.

- نعم، هكذا أصبحَ لديكِ شخصٌ آخرُ كي تعذّبيه، إيه!

سُررتُ برؤيته. فهو لنْ يرسلَني أبدًا إلى دارٍ للعجزة. كنتُ قديمًا حينَ أريدُ الحكمَ على شخصٍ وإقرار قدرته على خداعي من عدمها، أتساءلُ إنْ كانَ من العملاء أيّامَ احتلال فرنسا، أمّا الآن فقد صار الاختبارُ الحقيقيّ: هل سيضعني هذا الشخصُ في دارٍ للعجزةِ أم لا، أو هل سيرسلني إلى المحرقة بتهمة أنّني ساحرة. كنتِ تقولينَ دومًا، بذلك الأسلوب اللاذعِ، ذامّةً ومادحةً في آنٍ معًا، أنّني ما كنتُ لأصمدَ، في العصور الوسطى، ولو لخمسِ دقائقَ.

كانَ الأطفالُ في الطابقِ العلويّ يتناولون الفطور أمام التّلفاز.

- أيشاهدون التلفاز في هذه الساعةِ وفي هذا الجوّ الجميل؟!

تساءلَ غيليم متعجّبًا.

كانتْ أورسولا، المُستحمّةُ توًّا، ببشرتها وشعرها اللامعيْنِ وإحدى تي-شيرتاتها الضيّقةِ ذات الزخارف المداريّة، تضحكُ وتشربُ القهوةَ بهدوء. ميزةُ أورسولا عندنا نحنُ الأشخاص الذين لا نحبُّ أنْ يخدمنا أحدٌ، أنّنا معها كأنّنا بلا خادمة. ظهرتْ إليسا عند باب المطبخ حاملةً فناجينَ وخبزًا محمّصًا، يتبعها داميان. منذ وصولنا إلى كاداكس، لم أرَها بمفردها ولو لدقيقةٍ واحدة.

- كيف حالك أيّتها الجميلة؟ حيّتني وهي مُقبلةٌ بشعرها الرائعِ المُرسَلِ وفانيلّتها ذات الحمّالتيْنِ البيضاويْنِ، وأظافر قدميْها المطليّة بالأحمر، وحذائها الفضيّ المُتناسقِ مع خلخالٍ ذي صنوجٍ صغيرةٍ جدًّا. خطرَ لي أنّنا مازلنا في الجوّ الكاريبيّ ذاته، وسلّتني الفكرةُ. تحبُّ إليسا الملابس كثيرًا، وكلّما غيّرتْ رفيقًا، غيّرتْ أسلوب لباسها أيضًا.

«على الرّغمِ من وجود أيّام لا أرغبُ خلالها سوى بالخروجِ إلى الشارعِ عاريةً» قالتْ لي ذاتَ مرّةٍ، ببراءةِ النساء الجميلاتِ العفويّاتِ اللاتي يعرفنَ أنّ الجمالَ بحدّ ذاته هو بمثابةِ ثوبٍ وأنّهنّ بالتالي لا يكُنّ عارياتٍ في أيّ حالٍ أبدًا.

كان داميان يرتدي بنطالًا رماديًّا ممزّقًا من الرّكبتيْن، وتي-شيرتا

قديمًا، وينتعلُ حذاءً رياضيًّا أسود وجوربًا قصيرًا باللّون ذاته، وفي معصمهِ السّوارُ الرّائعُ من البرونز الفيروزيّ الذي يلبسه دومًا. حاولتُ أنْ أسلبه إيّاه عدّة مرّاتٍ، لكنّه كان يقول إنّه لا يخرجُ من يده. وروى لي أنّه يضعه منذ أنْ كان مراهقًا قبل خروجه من كوبا، وأنّه حينَ حاولَ نزعه عن يده مرّةً -وقد أهدته له حبيبته ثمّ انتهت العلاقةُ بينهما- كان معصمه قد كَبُرَ ولم يعدْ يمكنُ للسوار الخروج منه. عرفتُ داميان قبلَ أنْ أعرفَ إليسا بسنواتٍ عديدة، عن طريق صديقٍ قديم، في حفلِ تقديم أنطولوجيا لشعراء كوبيّين شباب. وهو شخصٌ كتومٌ هادئٌ ودودٌ حنونٌ ومحبٌّ للّهو، يحبُّ النساءَ والكحول والمخدِّرات، لكنّني لم أره يومًا يتفاخرُ بأيّ من هذه الأشياء الثّلاثة. أعتقدُ أنّه شابٌ طيّبٌ -مع أنّ هذا الأمر لا يمكنُ معرفته أبدًا إلاّ إذا طلبتَ معروفًا من الشّخص، وحانَت لحظةُ اتّخاذِ موقف مّا، وهذه اللحظة لا بدّ أن تأتي مهما طالَ الوقت- لكنّه ينظرُ مباشرةً في عيني محُدِّثه، ويتصرّفُ بالطريقة ذاتها مع الجميع ولم أسمعه يومًا ينتقدُ أحدًا. يحبّ الابتسامَ أكثر من الكلام ولا يتحدّثُ إلاّ لكي يشرحَ إحدى النظريّات السياسيّة الاجتماعيّة المعقّدة التي لا ينجحُ أحدٌ في فهمها أبدًا. ولا أستغربُ أنْ يكون واحدًا من أولئك الذي يعتقدون أنّ وصولَ الإنسانِ إلى القمر لم يكنْ سوى عمليّة مونتاج. هو طويلٌ ونحيلٌ لكنّ قامته ليّنةٌ وانسيابيّة، وأساريره متراخيةٌ مثل التّلال، وليستْ حادّةً مثل ملامحِ أولئك الرّجال الذين يعجبونني، ليس فيها اعتلالٌ ولا نتوءٌ ولا انحراف. وما من عواصفَ تختبئُ في الأجواء لديه، وسماءُ المُتعةِ التي يُمكنُ بلوغُها إلى جانبه لا تتعدّى

السّقف، سقفَ غرفةِ النّومِ ربّما. بالطّبعِ فإنّ إليسا تنظرُ إليه على أنّه نوعٌ من آلهةِ الأوليمب، أخّاذٌ وخطير، دونجوان أقامَ، من وجهة نظرها، علاقات غراميّةً عابرةً مع نصف نساءِ المدينة. حينَ تعشقُ -مع أنّها تصرُّ على إنكار ذلك، وتقول إنّه مجرّدُ حبيبٍ فحسب، وهي إشارةٌ أخرى على أنّها تعشقه بالفعل- فلا شيء ممّا تظنّ أنّكَ تعرفه عن الشخص المحبوب يوافقُ الواقع، خاصّةً ما يتعلّقُ بمظهره الجذّاب. سيكونُ من الجيّدِ تذكّرُ هذا الأمر من أجلِ المرّاتِ القادمة، غيرَ أنّ الحبّ يعيدُ كلّ مؤشرات التّقييم إلى الصّفر من جديد، هكذا وبقليلٍ من الحظّ يصبحُ الرّجلُ التالي الأكثرَ وسامةً وجاذبيّةً وذكاءً ومرحًا وإثارةً في العالم. حتّى وإنْ كانَ مُزعجًا ونصفَ أحمق.

في تلك اللّحظةِ، وصلتْ صوفيا من القريةِ تجرجرُ داني ومعها زجاجةُ شامبانيا فرنسيّة في يدها. كانت ترتدي قبّعةً ضخمةً من القشّ بربطةٍ سوداء تبدو كأنّها قمعٌ معكوسٌ قُصّ رأسه، ونظّارات شمسٍ كبيرة جدًّا وثوبًا أسودَ معقودًا حولَ عنقها كاشفًا عن رقّةِ كتفيها وتُرقوتها.

- انظروا ماذا وجدتُ في القرية!

بقيتْ محدّقةً في غيليم لحظاتٍ عديدة، ورأيتُ في عيْنيه بسرعةٍ فائقةٍ عبور المفاجأة والفضول والاهتمام والفرح.

- شامبانيا. إيه! -قال، ناظرًا إليها في سخريّة-. حبّذا لو كانت زجاجةَ ويسكي. الشامبانيا للمتأنّقات الحمقاوات. أليس كذلك يا أورسولا؟

- لا أعرف سيّد غيليم. فأنا لا أشرب.

حسنًا، حسنًا. -أجاب-. في هذا البيت علينا أنْ نعلّمَ مستوى المشروب في الزجاجة بالقلم قبل الذّهاب إلى النّوم. كي نعرفَ في اليوم التالي ما قد حدث.

- اشتريتُها لأنّني أشعر بضيقٍ شديدٍ، لقد تُوفّي الطبيبُ النسائيّ الذي أتردّد إليه.

- آه ! -قلت- آسفة لذلك. يا له من خبرٍ مؤلم.

جلستْ إلى الطّاولةِ وقد بدا عليها الاكتئاب وبقيتْ شاردةً للحظات. لم أكنْ أعرفُ أنّها تُكنّ إلى طبيبها كلّ هذا الود. وتساءلتُ ما إذا كانت ستسرقُ منّي حدادي.

ثمّ رفعتْ رأسها وقالتْ مُتعجّبةً: تخيّلوا! لقد توفّيَ أوّلُ رجلٍ أدخلَ يده في فرجي.

تنفسّتُ الصعداء.

- ها قد كبرنا. قالتْ إليسا بنفسٍ فلسفيّ.

- نعم، أنا في حالة رائعة، أفضلُ من أيّ وقت مضى. قالت صوفيا.

- هيّا (بوش)، ناوليني الزجاجةَ كي أضعَها في الثّلاجة. -قال غيليم-. قبلَ قليلٍ عرفنا كم أنت مُغتمّة.

- بماذا تناديني؟ سألت صوفيا بعيْنيْن اتّسعتا من الدهشة.

- بوش، كما تعرفين، هي الفتاة المتأنّقة في السبايس غيرلز. قُلت.

أخذت صوفيا تضحك.

غريب! فأنا لست متأنقّةً البتّة..

- الغريب هو القبّعة التي ترتدين. -قال غيليم-. حسنًا، من يريد الإبحار بالقارب؟ يا أولاد، يا أولاد، هل أنتم جاهزون؟ سننطلق بعد خمس دقائق. هيا يا (بوش) اذهبي وارتدي ثوبَ السّباحة.

لم يكن هنالكَ في العالم ما يعُجبكِ أكثرَ من الإبحارِ على متنِ المركب.

حين أمتلكُ الشجاعةَ لفتحِ ألبومات الصورِ التي أهديتني إيّاها قبل أشهرٍ قليلةٍ من وفاتك في عيد ميلادي الأخير، وقد وصلْتِ يومها إلى البيتِ تجرّينَ بمشقّةٍ وبمساعدةِ إحدى الخادماتِ حقيبةً أرجوانيّة تغصُّ بالألبومات، وكانتْ هي البرهانَ القاطعَ على أنّنا عشنا حياةً سعيدة، (وكنتُ أقولُ لكِ في مناسباتٍ عديدة إنّني لم أكنْ أُحبّ أيًّا من التّماثيل أو الكتبِ أو اللّوحاتِ القيّمة التي كنت تقتنينها، وإنّني لا أرغبُ إلاّ في سلسلةِ الألبومات العائليّة التي كان جدّي قد بدأ يجمعها ثمّ واصلتِ المهمّةَ من بعده) سأبحثُ عن صورَتكِ وأنتِ على دفّةِ القارب توتوروت، مبتسمة، وشعرُك الذي علقَ به ملحُ البحر يتماوجُ في الرّيح، وأعلّقها على رفّ الصّور إلى جانب صورةِ أبي. لم أفعلْ ذلك حتّى الآن لأنّكِ لم تُصبحي بعدُ ذكرى، وأحسبُ أنّ الزّمنَ، القاسي جدًّا والرّحيم جدًّا سيتكفّلُ بذلك.

كان غيليم يرتدي قبّعة بحّارٍ قديمةً عثر عليها في المرآب، وقادَ المجموعةَ التي كانت تمشي نحو المرفأ عبر الشوارعِ المرصوفةِ

بالحجارة وتحتَ بصر الكنيسةِ الشامخة الساطعةِ كالشمس؛ كانتْ البيوتُ تشكّل حولها، مثل جيشٍ مطيعٍ، كتلةً متراصّةً ومتناغمةً لم يكن يتخلّلها، في بعضِ المواقعِ، سوى اللّون البنفسجيّ اللاّمع لزهرة البوغنفيليّة، والأخضرِ الباهتِ لبعضِ الأشجار. خلفَ القريةِ، تنتصبُ منذ القدم جبالٌ مكسوّةٌ بأشجار الزيتون، تعزلُ القريةَ عن باقي المنطقةِ محوّلةً إيّاها، على مرّ العصورِ، إلى جزيرةٍ فعليّة. أمّا البحرُ، مُستكينًا كانَ أم ثائرًا، حزينًا أم مُبتهجًا، عِربيدًا أم خجولًا، مرشوقًا بالقواربِ أم مهجورًا ومُتعبًا، فإنّه يمنحُ المجدَ لهذا المكانِ الذي لم يستطع الزّمنُ ولا أفواجُ السيّاحِ المتعاقبة أنْ يحطّوا من قدره.

كان الأولادُ يرتدون سُتر نجاةٍ برتقاليّةً بلونِ العوّامات التي كانت تنتشرُ طافيةً على سطح البحر وينتظرون بصبرٍ على المرفأ إلى جوار غيليم وباتوم وصولَ المراكبيّ الذي سيحملنا إلى عوّامتنا. كان هوغو وبيب يتحدّثان بصوتٍ خفيضٍ بينما تولّت كارولينا مهمّةَ مراقبةِ الصغيرةِ نينا كي لا ترتمي في الماء، أمّا نحنُ فذهبنا لشراء البيرّة.

وسرعانَ ما تصادقَ غيليم مع المراكبيّ. الذي أعطاه رقم هاتفه كي نتصل به حين ننْوي العودة.

- بوش، ذكّريني كي أشتريَ لك زجاجةَ روم حين نعودُ إلى القرية هذا المساء.

كان البحرُ مثل صحنٍ برّاق، كما لو أنّ نجومَ الليلة الماضية كلّها قد سقطت فيه. وضعتُ يدي في الماءِ وجعلتُها تنجرُّ مع سرعةِ القارب، شعرتُ بمرورِ التيّار بيْن أصابعي، ثلاثةُ خطوطٍ مُزبدةٍ

تتركُ أثرًا يتلاشى من فوره. رأيتُ في القعرِ أسماكًا صغيرةً رماديّةً مثلَ أشباحٍ، وأخذ الشاطئُ وقوسُ قزحِ البشريُّ والضحكات والصيحاتُ واللعب في الماءِ، تبتعدُ سريعًا. جعلَنا غيليم نصعدُ إلى القاربِ واحدًا تلو الآخر، وأشار إلى كلّ منّا بمقعده، ثمّ أخرجَ المجداف وذراعَ الدفّةِ بمساعدة إدغار، واتّخذَ موقعَه في منتصفِ القاربِ، وعدّلَ طاقيّة البحّارِ التي كان يرتديها وبدأ يقلّدكِ.

- حسنًا يا أولاد، لا تتحرّكوا من أماكنكم. فركوبُ القاربِ أمرٌ خطرٌ. إدغار، إدغار، ثبّت المجداف! احترس! احترس! فقد تسقطُ في الماء! أينَ هي المرساة؟ آه! في الماء. فلنرَ إنْ لم تكنْ عالقةً بين الصخور. كلاّ، هذا ألطف! المفاتيح! المفاتيح! أينَ هي المفاتيح! من المُكلّفُ بجلبِ المفاتيح! حقيبتي! حقيبتي! أين هي؟ النظّارات! النظّارت! لا تتحرّكوا من أماكنكم.

كانَ تقليده موفّقًا حتّى أننا غرقنا جميعًا في الضّحك.

وضع بعد ذلك طرفَ سبّابته على فمه ثمّ رفعه إلى الأعلى، مُقطّبًا حاجبيه وناظرًا إلى الأفق فتحوّلَ بذلك إلى باكو، أحد أصدقائكِ القدامى.

- فلنرَ! اليومَ تهبُّ رياحُ الغاربي[1]. نعم.. نعم.. الوضعُ معقّدٌ وقد يتأزّم أكثر. من الأفضل أن نبقى على مقربةٍ من الميناء. نسبح قليلًا ثمّ نعودُ إلى البيت.

---

(1) اسم يُطلقُ على رياحٍ تهبُّ جنوب شرق إسبانيا.

- لكنّ البحرَ مثلَ صفحةٍ ولا وجودَ لأيّ هبّة ريح. قال نيكولاس محتجًّا.

- اسمع يا ولد، لقد أمضيتُ أعوامًا طويلةً مُبحرًا على متن القارب. وأعرفُ ما أقول. فإنْ لم تصغوا إليّ فسأنزلُ حالًا، ولتتدبّروا أمركم. وحين تجدون أنفسكم في مايوركا بعدَ أنْ يكون التيّارُ قد جرفكم تذكّروا كلماتي. في شبابي...

انزلقَ القاربُ بهدوءٍ على سطح البحر. منَعَنا صوتُ مدخنةِ المحرّك الخشن من التّحدث، وخلال لحظاتٍ تاهتْ النظراتُ في المدى البعيد ولم يعدْ من داعٍ لقولِ أيّة كلمة. إنّ أروعَ ما في الجمالِ قدرتهُ في أغلبِ الأحيانِ على جعلِ الناسِ يصمتون وينسحبونِ إلى دواخلهم. شعرتُ بيدِ نيكولاس الصغيرةِ المكتنزةِ الفاترة، في يدي. تناوبَ الأولادُ، تحتَ إشرافِ غيليم، على توجيه الدفّةِ. وجلسَ إدغار منفرجَ الساقين على مُقدّمِ القاربِ، كما كنتُ أفعلُ في صغري. كانتْ صوفيا تشربُ البيرّةَ وعيناها مغمضتنان، وباتوم ترتمي عند قدميّ غافيةً. أمّا بيب الذي كان بحكم مِهنته مضطّرًا لأنْ يُبقي عينيْه مفتوحتيْن، فيما عيونُ الآخرينَ مُغمضة، فقد أخذ يلتقطُ لنا صورًا، وكانت كارولينا مقيّدةً ببِنينا التي نامت على ركبتيْها بفعل صوتِ المحرّك، وهوغو يتشمّس. دنوْنا من خليجٍ صغيرٍ لا يُبحرُ فيه سوى قاربيْنِ آخرين، حيّانا راكبوهما بلطفٍ. كانت المياهُ شديدة الشفافيّة حتّى بدا وكأنّ بوسعنا لمسُ العمقِ الصّخريّ المُدبّب الخطِر بأقدامنا التي كانت في الواقعِ تبعدُ أكثرَ من عشرينَ مترًا عن العمق. وحينَ

توقّفتْ التهويدةُ الصّادرة من مدخنة المحرّك، صحونْا جميعًا في الوقتِ ذاته من نعاسنا، مثلما يحدثُ حينَ يُطقطقُ مختصّ التنويمِ المغناطيسيّ أصابعه أمام المريض. أخذت باتوم، تنبحُ وتتقافزُ بحماس، كسبّاحةٍ خبيرةٍ، مثلَ كلّ كلاب سلالتها. وكانَ إدغار أوّل الغاطسين ومن بعده قفزتْ الكلبةُ وكادتْ تسقطُ فوقَ رأسه. وتجهَّزَ الصغارُ كي يهبطوا السلّمَ فيما تولّى غيليم بمساعدةِ هوغو، مهمّةَ التأكّدِ من رسوّ المركب بأمان.

-اكتشفتُ أمرًا. -قالتْ صوفيا، فجأة، باستغراب-. نسيتُ ثوبَ سباحتي. ونظرتْ إلينا بوجه طفلةٍ شقيّة.

واصلَ الصغارُ الانهماكَ بأشغالهم متظاهرينَ بعدمِ سماعها. ورفعَ هوغو حاجبًا من وراء نظّارته الشمسيّة وابتسمَ ابتسامةً خفيّةً. لكنّه بقي ساكنًا مُستلقيًا. ورمقها غيليم بطرف عيْنه وواصلَ يسحبُ حبلَ المرساةِ بشدّةٍ أكثر ممّا كان يفعلُ قبلَ دقيقةٍ. أمّا بيبْ، ومن دون أنْ يرفع عينه عن الكاميرا أمال عدستها بحياءٍ نحو البحر. وهمس نيكولاس في أذني، وكانَ مرتديًا ثوب السباحة مُنذ أنْ نهضَ من فراشه، قائلًا:

- صوفيا حمقاء! كيفَ تنسى ثوب السباحة؟

- تأخرتِ نصفَ ساعةٍ من أجلِ تبديلِ ملابسك، واضطُررنا لانتظاركِ كأنّنا في علبة سردين، مغشيًّا علينا من الحرّ داخلَ السّيارةِ، ومع ذلكَ تنسين ارتداء ثوب السباحة. قُلتُ وأنا أنظرُ إليها مُتسلّيةً بالموقف.

- نعم هذا تمامًا ما حدث. يالي من ساهية!

- آه.

- إذن، فلتسبحي عاريةً. -قالت كارولينا- . فهذا أمتع على كلّ حال.

وبالأناقةِ والتلقائيّةِ ذاتها التي تخلعُ بها صوفيا وشاحَ الفرو الشتويّ عن عنقها حينَ تصلُ إلى مكانٍ عامّ. وكما ترتمي مُخَدّرةً على أريكةٍ أو وسطَ العُشبِ حينَ يجعلها الإفراطُ في الشربِ تغمضُ عينيها، بعدْ أنْ تكون قدْ قالتْ لي ألف مرّة إنّها تحبّني، بهذه الطريقةِ ذاتها، تركتْ رداءَها الطويل إلى القدميْنِ، الحائلَ والُمخطّط بالورديّ والرّماديّ ينزلُ عن كتفيها، وبقفزةٍ واحدةٍ غطستْ في الماء، وانغمرَ جسدُها فيه مثلَ شعاعٍ بلون الكراميل، برشاقةِ سبّاحةٍ مُحترفة وتمكّنها، بصمت، ومن غيرِ طرطشةٍ.

- آه! لقد اكتفى الطبيبِ النسائيّ وغيره من المساكين بوضع أيديهم داخله.. أمّا نحنُ فها قد رأيناه جميعًا بأمّ أعيننا. همست كارولينا.

استندتُ إلى السلّمِ ونزلتُ على مَهل شديد، جعلَ الماءُ المتجمّد جسدي يرتجف ويقشعرّ، فتوتّرت وانقبضتْ عضلاتُ جسمي كلّها. وأخيرًا -حينَ استسلمتُ وأرخيتُ كلّ القيودِ وتركتُ برودته الحادّة كالسكّين تغلّفني، وأغمضتُ عينيّ وأخذ شَعري يتراقصُ فوقَ رأسيَ المغمورِ مثل شعر الميدوسا، وخفّ جسدي وفقد وزنه تمامًا- احتواني الماءُ وباركني وأذابني، وتساءلتُ إنْ لم يكنْ البحرُ آخرَ عشّاقي.

11

كنتُ أوّلَ من استحمّ، ثمّ صعدتُ إلى المطبخِ وأنا أفكّرُ في تناولِ كأسٍ من النَبيذ الأبيضِ المُثلّجِ والذّهاب للاستلقاء في أرجوحةِ النوّم على الشّرفة إلى حينِ وجبةِ الظهيرة. في تلك اللّحظةِ اقتربتْ منّي إليسا عابسةً:

- اكتشفتُ توًّا أنّه لا يوجدُ طعامٌ كافٍ. قالت.

- آه! للأسف. ولكنْ.. حسنًا، هنالك بعض البسكويت، أليسَ كذلك؟

- ما أظرفَك!

- هذه ليستْ مزْحة. أنبّهك إلى أنّ نصفَ السّاعة المُخصّصة لراحتي ونبيذي الأبيض ومكاني الأثير في أرجوحةِ النّومِ أصبحت الآن في خطرٍ. إنّ الشمسَ سليطةٌ في الخارجِ وأنا متُعبة. فلا تتوقّعي منّي الذهابَ لشراء الأكل. قلتُ وقد أغمضتُ عينيّ واندفعتُ بقوّة أكبرَ على أرجوحتي.

- هذا هو تمامًا. -ثمّ بقيتْ صامتةً للحظة، تنتظرُ أنْ أفتحَ عينيّ، لكنّني، أنا الكسولة، لم أفتحهما، وهي العنيدةُ، لم تتحرّك.- بلانكيتا! لقد أمضيتُ نصفَ الصّباحِ أنظّفُ وأطبخ، انهضي

حالًا واذهبي لشراء بعض سجقّ البوتيفارّاس[1] من عند القصّاب. قالتْ أخيرًا وهي تحدّق فيّ بجديّةٍ وقد أوقفت الأرجوحة.

أبديْتُ بعضَ الاحتجاج وهدّدتها بأنّه سيُغمى عليّ في الطّريق، ويرتطمُ رأسي بحجرٍ وأموتُ وأنا أنزفُ بسببها، لكنّ قلبها لم يرِق.

- حسنًا. سأذهب. لكنّني لا أفهمُ هذا الهَوس البرجوازيّ بالغداءِ والعشاء. أصبحتم مجموعةً من المُدلّلين.

أفرغ البحرُ شوارعَ القريةِ جاذبًا غالبيّةَ سكّانها إلى الشاطئ، مثلَ مغناطيسٍ عملاقٍ. ولم يبق فيها سوى بعضِ الناجين يتمشّون في الشوارعِ مخدّرينَ يبحثون عن ظلّ البيوتِ التّي أنهكتها الشّمس. عليك أنْ تكون قد اجتزتَ عمرًا معيّنًا حتى تشعر بعاطفةٍ نحو المدينة التي وُلِدتَ فيها أو أمضيت فيها طفولتك، فلا تجوبها مسرعًا مُغمَضَ العينيْنِ لأنّك اعتدتَ عليها، ولا تخرجُ كلّ صباحٍ باحثًا عن مغامرةٍ بعيدًا عنها. أحبُّ برشلونة لأنّ حياتي جرتْ هناك -في ذاك المشفى وُلدَ إدغار وفي ذاك البار تبادلتُ مع أبيه القبلَ سرًّا. أمّا هُنا فكنتُ أتناول العصرونيّةَ مع جدّي وهنا كانتْ وفاتُكِ-، لكنْ أعتقدُ أنّني كنتُ سأعشقُ كاداكس حتّى لو لم أزرْها يومًا، حتّى لو أنّني مررتُ بها سريعًا عابرةً إلى مكانٍ آخر، وحتّى لو كنتُ آتيةً من عالمٍ آخر ولم يكن يجمعني شيءٌ -لا ثقافةٌ ولا لغة ولا ذكريات- بهذا المكانِ المغلقِ الوعر الوحشيّ، بمساءاته المنسوجةِ من حريرٍ ورديٍّ،

---

(1) نوع من السّجق خاصّ بالمطبخ الكتالوني.

وبالرياحِ السّوداء التي تعصفُ فيه وتمضي في الشتاءِ لتزيل صِبغتها في البحر، وحيثُ يأخذكَ كلّ شيءٍ نحو الغيومِ والسّماء. دخلتُ إلى دكّانِ الجزارة واستنشقتُ بارتياحٍ نفحةً الهواءِ المكيّفِ فيه. لم أنتبهْ يومًا إلى هذا الشّبه الكبير بين دكّانِ الجزارة والمشفى. خطرَ لي ذلك بينما كنت أشاهدُ الجدرانَ والأرضيّة المفروشة بخزف أبيض، وصفّ المقاعدِ المخصّصِ لجلوسِ السيّداتِ اللاّتي ينتظرن دورهنّ، -وكانَ فارغًا حينَ وصلت-، والسّكاكين التي تشبه أدواتِ غرفةِ العمليّات الجراحيّة، جاهزةً للتقطيع، وأنابيب الفلوريسنت المُضاءة في السّقف بذلك الإحساسِ الجليديّ الكريه الذي تمنحه. تمنّيتُ ألاّ ألتقيَ بحبيبٍ من الماضي فلا بدّ أنّ هَيئتي كانت مرعبة، وكنتُ بهذا سأشكّلُ خيبةً ثانيةً له. وإذّاك، رأيتُ امرأةً تقفُ أمامَ واجهةِ التبريد المليئةِ برفوف السجق وأكوام اللّحم والزوائد الطازجة، الرطبةِ الطريّة: كانت زوجةَ سانتي! لم نلتقِ يومًا لكنّني رأيتُ صورةً لها مع أبنائها في بيْت سانتي ولعلّها أيضًا تعرف شكلي. شعرتُ بمزيجٍ من الإثارةِ والرّعب، وببعضِ النّفور، وإنْ كنتُ أدرك أنّها الوحيدةَ التي من حقها أنْ تشعر بالنفور. هي أصغرُ منّي سنًّا ولها جسدٌ متينٌ وجميل، العنقُ قصيرٌ ومكتنزٌ، والجذعُ عريضٌ وضخمٌ على ساقينْ نحيلتينِ، والوجهُ مدوّرٌ ومُسمرٌّ والعينانِ كستنائيّتان واسعتانِ وتكادانِ تخلوانِ من التّعبير تمامًا. شعرُها مسرّحٌ على شكل ذيل فرسٍ وترتدي ثوبًا مموّجًا بالأزرق الفيروزيّ وعِقدٍ من خرزٍ ملائم له. وعلى الرّغم من قِصرِ قامتها وهيئتها الواقعيّة جدًّا والأرضيّة، فإنّها تتحدّثُ باللّطف الفائق والكياسةِ اللّذينِ يميّزانِ بعض الأثرياء، وبصوتٍ عالٍ جدًّا

من دون أنْ تنظرَ إلى القصّاب. شعرتُ بكثيرٍ من عدمِ الارتياح وبِقلّةِ شأني، وكأنّ صوتَها حينَ تأمر وتطلبُ وحرصَها على ألاّ ينفَد صبرُها أثناء الانتظار كانا موجّهين إليّ. وفجأة التفتتْ. تجاوزتْني نظرتها التي انفلتت من تحتِ جفونها الثّقيلة فلم ترَني. لم يوقفْها ذهولٌ ولا غضبٌ ولا فضول، ولا حتّى رعشةُ النظرِ الخفيفةُ التي تحدثُ حينَ نصادفُ كائنًا بشريًّا آخر في طريقنا. هيَ لم ترَنِي وحسب. تناولتْ أكياسَ مُشترياتها واستأذنتْ مودّعةً بصوتٍ لا يكادُ يُسمع. تنفّستُ الصّعداءَ بعدَ أنْ تملّكتني الدّهشة -أنا، المرأة التي لا يُمكنها أنْ تدخلَ مكانًا إلاّ وتسعى فيه جاهدةً إلى فهم كلّ ما يحيطُ بها من أشياء وبشرٍ- وبدأتُ، على الفور، أرسمُ الخيالاتِ حولَ ما كانَ يمكنُ أنْ يحدثَ، وسعِدتُ من أعماقي لعدمِ حدوثه. لم يكن هنالك زوجةٌ مُوبِّخةٌ ولا مُحقِّرة ولا حانقة، ولا عاشقةٌ قاسيةٌ صلفةٌ وذاتُ حظوةٍ تلتقيها صدفةً عندَ ثلاّجةِ البوتيفار والفويت[1]. ثمّ فكّرتُ بشيءٍ من الألم في سانتي الذي اختارَ أنْ ينامَ إلى جانب هذه المرأة، الجذّابةِ المتسلّطةِ حتّى آخرِ أيّامه.

خرجتُ وأنا أحملُ السجق ودخلتُ إلى الكازينو لأشتريَ السجائر وأتناولَ كأسًا. فرأيتُ الرّجلَ الغامضَ جالسًا على إحدى الطّاولات في أقصى القاعة الظّليلةِ جوارَ البار، حيثُ يعتادُ كبارُ السنّ من القريةِ الجلوسَ ولعبَ الورق. فكّرتُ للحظةٍ، بنوعٍ من السّذاجةِ الطّفوليّة، أنّكِ أنتِ من جئتِ به ووضعْته هنا، كعلامةٍ مّا. كنتِ

(1) أحد أنواع السجق الأخرى الخاصّة بالمطعم الكاتالوني.

تَقلقينَ حينَ يمضي عليّ وقتٌ طويلٌ دون أنْ أقعَ في حبٍّ حقيقيّ، وأن أحوّلُ شيئًا ثمينًا جدًّا في نظركِ إلى لعبةٍ ألعبها أمام خصومٍ كنتِ ترينَ -على غرارِ الأمّهاتِ النمطيّات- أنّهم ليسوا أندادًا لي ولا يمتلكون ما أمتلك من خبرةٍ بها. كنتِ تقولينَ: «يا صغيرتي، الطبيعيّ في سنّكِ، أنْ تكوني عاشقةً». ولوقتٍ طويلٍ، كانتْ قصّةُ الحُبِّ الوحيدة التي تشغلني هي قصّةُ حبّي لك.

جلستُ إلى الطّاولةِ المجاورة. ابتسمَ لي بتلقائيّةٍ، كأنّنا نعرفُ بعضنا بعضًا.

- هل أضعتِ اليوم، فردةَ حذاءٍ أخرى ؟ سألني مُنحنيًا إلى الأمام وناظرًا إلى قدميّ.

أخذنا نضحك. لهذا الرّجلِ نظرةٌ تأمّليّةٌ لا تُقاوَمُ، حسّاسةٌ وحزينةٌ قليلًا، لا يقطعها من حين لآخر، سوى خجله. الفمُ كبيرٌ بشفتيْنِ جديرتيْنِ بالتّقبيل، ذكوريّتيْنِ لكنّهما مُكتنزتيْنِ بما يكفي لغرزِ الأسنانِ فيهما. يَلويهما قليلًا حينَ يضحكُ فيبدِّلان هيئةَ وجهه الشبيه ببطلٍ إغريقيٍّ ويمنحانه مسحةً طفوليّة. والحاجبانِ غليظانِ وأشدُّ دُكنةً من شعره القصيرِ الغزيرِ بلون الذّهبِ المعتّق، الذي قد يكون الشتاءُ أكسبه لونه المُعتم، ويتوّجُ، مثلَ غيمةٍ صغيرةٍ نديّةٍ، الجبينَ المُنتفِخ قليلًا، والذّقنُ عريضٌ تحميه لحيةٌ، يُفترَضُ أنّ عمرها أربعةُ أيّامٍ، لكنْ يبدو أنّها لم تستغرقه سوى يومين حتى تنبتَ على هذا النّحو، والعينان لوزيّتان بلونٍ رماديّ معتمٍ وعاصف، واسعتان ومتباعدتان كما لو كانتا تريدانِ الزّحفَ إلى الصدغيْنِ فلا تفوّتانِ أيّ

شيءٍ يحدثُ حولهما، والصوّتُ رخيمٌ وعميقٌ دون أيّ تكلّف، فلا يكذّبُ هيئتَه البدنيّةَ ولا يناقضُها.

- كلاّ، إلى حدّ الآن، قُلت. إنّ الصّنادلَ، في الحقيقة، يمكنها أنْ تطير في الهواء، أحيانًا، إذا كان من يرتديها يمشي بسرعة، لأنّ القدَم لا تكون مثبّتةً بها جيّدًا. أتعرفُ هذا؟ قلت له مشيرة بيديّ ومحرّكة قدمي ليرى كيفَ يتحرّكُ الحذاء فيها، ولينتَبه أيضًا إلى نعومة كعبي ورقّته.

- أنا أرتدي على الدّوام خفّ الخيش هذا. أعني على الدّوامِ في الصيف. ولا أهتمّ كثيرًا بالموضة.

- ولا أنا أيضًا. ها قد بدأت أتفوّه بأكاذيب، خمّنتُ. وسأجد نفسي بعد قليلٍ، أخبره بأنّني أحبّ كرة القدم ولا أقرأ سوى الشّعر.

- ألنْ تذهبي اليوم إلى الشّاطئ؟

- عُدنا من هناك لتوّنا. إنّ بشرتي حسّاسةٌ جدًّا، ولا أستطيعُ التعرّضَ للشّمس في هذه السّاعات، حسنًا، ولا في أيّ ساعة. وحسب الطبيب الجلديّ، فإنّ بشرتي حالةٌ شاذّة في هذه البلاد.

- نعم! فكم أنت نمشاء. خارطةٌ من النّمش.

- كنتُ أكرهه في صغري، فلم يكنْ في المدرسةِ أحدٌ عنده من النّمش أكثر ممّا عندي. كنتُ حالة نادرة. ثمّ تعوّدتُ عليه. وقلتُ لنفسي مُعقّبةً: حينَ بدأ رجالٌ مثلك يقولون لي إنّه يعجبهم.

- أمّا أنا فيعجبني.

ابتسمتُ شاكرةً. فقد حالفني الحظّ. لم أستخفّ في يومٍ من الأيّامِ بحبّ الرّجال ولا قلّلتُ من قدره. فأنا أعرفُ إلى أيّ حدٍّ أحتاجه ولاَ يمكنني العيشُ من دونه.

- هل عدّها أحدٌ لك يومًا؟

- كلاّ...

- آه أتخيّلُ ذلك. من المؤكد أنّهم كانوا يخطئون العدّ قبل إتمامه.

أخذنا نضحك.

- شيءٌ من هذا القبيل.

- أنا ممتازٌ حين يتعلّق الأمر بالأرقام. وأخفضَ بصره، مُقطّبًا حاجبَه، كما لو خطر له فجأة موضوعٌ مُهمّ ومعقد. وكان عليه أنْ يوجّه إليه كلّ انتباهه.

- لا أشكّ في ذلك. هل يمكنني أنْ أسألك سؤالًا؟

- نعم بالطّبع.

- ماذا كنتَ تفعلُ في جنازةِ أمّي؟ كنت أنتَ؟ أليسَ كذلك؟

- نعم، أنا.

- كنتَ تعرفها؟

- كلاّ. أبي من كانَ يعرفها.

- لا تقلْ لي إنّنا أخوان.

أخذ يضحكُ من جديد.

- كلاّ. كلاّ.

- أوف! هذا أرحَم!

- كانَ أبي يملكُ في شبابه مكانًا لإقامةِ الحفلات الموسيقيّة. بارًا صغيرًا بعيدًا كي لا أبالغ. بل مغارةً بالأحرى. وكانتْ والدتُكِ تتردّدُ إليه عادةً، وكان أبي يتناول الغيتارَ، أحيانًا، ويشرع في الغناء. وكانتْ والدتُكِ شديدة الإعجاب بغنائه. وتطلبُ منه دائمًا أنْ يغنّيَ الأغنيةَ ذاتها.

كان يتحدّثُ وكأنّه يروي لي قصّةً، ذاتَ يومٍ.. في قديم الزّمان.. كما لو كانَ بيْنَ يديه صندوقُ مجوهراتٍ عجيبةٍ ولسببٍ غامضٍ أرادَ أنْ يهديَني إيّاها جميعًا. بسطتُ يديَّ الجامدتيْنِ وقرّبتُ كرسيّي إلى كرسيّه.

- وما هي تلكَ الأغنية؟

- لا أتذكّرها، أعتقدُ أنّها إحدى الأغنياتِ الأرجنتينيّة. -أردف قائلًا-: بالطّبع كانت هذه المرأة تُدهشُ أبي. فقد كانتْ مثقّفةً ورزينةً وخجولةً وودودة، سيّدةً آتيةً من مجتمعِ المدينةِ الرّفيعِ، وتتأثّرُ بأغنياته.

- لم أكنْ أعرفُ هذه القصّة.

- لعلّك لم تكوني قد وُلِدتِ بعد. وحدّثها أبي، ذاتَ يومٍ عقبَ العرض، أنّه كان يعاني من مشكلةٍ ماديّة. لم يكونا صديقيْن، إنّما كانا يتحدّثان على نحو اعتياديٍّ، مثلما يفعلُ أحيانًا مرتادو

البار ذاته. فطلبتْ منه والدَتُكِ القدوم في اليومِ التّالي، لمقابلتها في مكتبها. وحينَ وصلَ، سألَته عن المبلغ الذي كان يحتاجه، وفتحتْ صندوقًا وأعطته إيّاه دون أنْ تسأله متى سيعيده أو لأيّ غرضٍ يحتاجه، لم تكنْ تعرفه جيّدًا ومع هذا لم تطلبْ أيّة ضمانة. فتحتْ الصندوق وناولته النّقود. وقد سدّد أبي المبلغَ حتى آخر بيزيتا، لكنّه لم ينسَ معروفَها يومًا.

- وماذا حدثَ بعد ذلك. هل تقابلا من جديد؟ أينَ هو والدُك الآن؟

- لم يحدث شيء. أظنّ أنَ النقودَ كانتْ من أجل تسديد الديون. كانتْ علاقةُ أبي بالأمور التجاريّة كارثيّةً. فقد أُغلِقَ البار وعادَ هو إلى الأرجنتين. وقد توفّي قبل سنواتٍ. أمّا أنا فقد وُلِدتُ هنا، أميّ كتلانيّة. حينَ علِمتُ بأنّ والدتَكِ قد توفّيت وأنّهم سيدفنونها في كاداكس، قرّرتُ أنْ آتي وأوفيها قدرها وأشكرَها بالنيّابةِ عن أبي.

- لماذا لم تدنُ منّي كيّ تحيّيني؟

- بدا لي أنّ اللّحظةَ لم تكنْ مناسبةً. كنتِ محاطةً بالكثير من النّاس.

- لو فعلتَ لأنقذتَ يومي.

أخذ يضحكُ، مُرسلًا نظرتَه إلى البعيد مجدّدًا.

- أتظنّين ذلك؟

- وربّما لا. فقدَ كانَ يومًا عصيبًا على كلّ حالٍ وما كانَ لشيءٍ أنْ

يخفّفَ وطأته. وماذا عن الفتاة التي كانت بصحبتك؟

- صديقة. من أجل هذا خُلِقَ الأصدقاء، أليس كذلك؟ كي يشربوا معًا، وكي يذهبوا معًا إلى الجنازات، من أجل أمورٍ كهذه.

فجأةً رنّ الهاتف. كانَ المتّصلُ أوسكار. فقد وصلَ الآن. وصارَ الجميعُ في انتظاري لنتناول الطعام معًا.

- عليّ الذّهاب، وصلَ زوجي السابق، رقم اثنين، قبلَ قليل.

نظرَ إليّ بوجهٍ علاه الفزع.

- وكم زوجًا سابقًا هم؟

أخذتُ أضحك.

- كلاّ، كلاّ. هما اثنانِ لا غير. وهو أمرٌ طبيعيّ بالنسبةِ إلى شخصٍ في سنّي، ومع كلّ هذه المشاغل.

- حسنًا فهمت. إلى اللّقاء.

خرجتُ مسرعةً من البار وأنا ألهو بالجواهر الورديّة العذْبةِ الدّافئةِ التي كانتْ تملأ جيبي.

12

تحتلُّ الطاولةُ الكبيرة التي صمّمها عمّي قبل أكثر من أربعينَ عامًا، من الخشبِ الضارب إلى الحمرة، بأرجلها الحديديّة اللاّزورديّة، غرفة الطعام كلّها. كانتْ نافذةٌ صغيرةٌ من الخشب تصلها بالمطبخ الصغير، الذي يعودُ ضيقُ مساحته إلى فترةٍ لم يوجد فيها أطفالٌ صغارٌ وكانتْ العائلةُ غالبًا ما تتغدّى وتتعشّى خارج البيت، فكانتْ هذه النافذةُ تسمحُ بتمرير الأطباق دون الحاجةِ إلى الوقوف. وكانت الإستراتيجيّةُ وراء اختيارِ موقعِ الشبابيكِ والأبوابِ هي إحداثُ تيّارٍ من الهواء وإحاطةُ المكانِ كلّه بالضوء الشفّاف الذي لا تتخلّله أيّة عتمة. إنّ العلاقة بين أوسكار وغيليم قائمة على الاحترام واللّطف المتبادليْن وكلٌّ منهما يعاملُ ابن الآخر بمحبّةٍ تقتربُ كثيرًا من محبّةِ الأب. لا أعرفُ جيّدا كيف وصلنا إلى هذه الحالة، نحنُ العاشقين الغاضبين، والحسّاسين ثلاثتَنا تجاه الاختلاط العشوائيّ المجّانيّ والتسامح الأعمى اللذين يطبعانِ الغالبيّة العظمى من أبناء جيلنا. كانَ أوسكار يمازحُ إدغار مُعلّقًا على شاربِهِ النامي حديثًا فيما كان غيليم يربطُ المنشفةَ جيّدًا حول عنق نيكولاس كي لا يلطّخ ملابسه. وكانتْ صوفيا تُغازلُ غيليم الذي كانَ يناكفها معترضًا على كلّ ما تقوله وساخرًا منه، وهي

وسيلة قديمة للإغواء. أمّا إليسا وداميان الغارقانِ في عالم عشقهما الجارف، فقد كانا يتحدّثانِ عن أسرارٍ تخصّهما بصوتٍ خفيض. وكانتْ تلفُّ له السجائر، وقد كانت أصابعها تتحرّكُ بسرعةٍ وتركيز، بحركاتٍ ناعمةٍ أنثويّة تكادُ تكونُ أموميّةً، ورأسُها منحنٍ إلى الأمامِ كما لو أنّها تحوكُ ثوبًا، وغرّتها تنسدلُ كستارةٍ تحجبُ وجهها. وبعدَ أنْ فرغتْ من لفّ السجائر تركتها برشاقةٍ أمام الطّبق مثلَ هديّةٍ. فجأة، بدا لي أنّني أتفرّجُ، دون قصدٍ، على مشهدِ خضوعٍ طوعيّ، فعلٍ إيروتيكيٍّ بعضَ الشيء وغيرِ محُتشمٍ ينبغي ألاّ يحدثَ إلاّ في السرير وفي الأوضاع الخاصّة، فعلٍ أشدّ حميميّة من الاستحمام عاريًا، نوعٍ من تقديمِ خدمةٍ. لقدْ ربّيْتني تربيةً صارمةً فعّالةً ضدّ أيّ نوعٍ من الخضوعِ الجدّيّ، حتّى أنّني لم أحتجْ أنْ أتحوّلَ إلى النسويّة.

اشترى غيليم كيلوغرامين من بَلحِ البحرِ التهمناهما بِنهمٍ كما لو كانَ ما يزالُ بنا توقٌ إلى البحر. وشربنا النبيذ الأبيضَ المثلّجَ كما لو أنّه ماءٌ. استنكرتْ صوفيا طريقتنا الشّرهةَ والأنانيّةَ في الأكل، دون أنْ تتفوّه بكلمة، -فلأكثر من يومٍ، وبسببِ بقائها في المطبخِ لإعداد الطعام، كانتْ تظلُّ بلا قطعةِ لحمٍ ولا سلطةٍ ولا حلوى- وقد فاقمها مكوثُنا وقتًا طويلًا جدًّا على البحرِ في الهواء الطّلق. أمّا أنا فقد كنتُ ممتنّةً لهذا التحوّل الذي حدثَ لولديّ من أميريْ مدينةٍ إلى بربريّيْنِ صغيريْنِ ببشرةٍ مملّحةٍ وحنطيّة. عندما كان نيكولاس يُشيحُ ببصره إلى الناحيةِ الأخرى من وقتٍ إلى آخر، كنتُ أسرقُ قُبلةً من خدّه المتنفخِ الورديّ النّمِش، فيتظاهرُ بالغضبِ، لكنّه، غارقًا في الضّحكِ،

يمنحني قُبلةً مثلها. حينَ نكونُ معًا، نتحوّلُ في أفضلِ حالاتنا، إلى قطيعٍ من الأسود.

أخبرتْ صوفيا أوسكار للمرّة الألف بأنّها مديرةُ شركةٍ تجاريّة.

- أيُعقلُ أنّ هذه الفتاةَ المجنونة تديرُ شركةً؟ -همسَ لي-. ألا يكون هذا ادّعاء آخر كي تبدوَ مهمّةً؟

ثمّ ضحكَ صاحبُ الرأس الكبير بفمه الواسعِ المتناسقِ وفكّه المربّعِ وجبينه الصّافي السّاطع، ضحكةً طفوليّةً شقيّةً كتلك التي يضحكها الكثيرُ من الرّجال. فهو يضحكُ مثلَ ولديْنا، ومثل غيليم، الذي لا تختلفُ يداه المُنهكتَان الصّلبتانِ، والمرتعشتانِ قليلًا، عن يديه. في عيني أوسكار العذبتيْن القاتمتيْنِ خليط من عيني سانتي الأكثر ذبولًا وجنونًا وعيني الرّجل الغريب الغامضِ الأكثر حزنًا وصفاءً، ذلك الذي كنتُ برفقته قبل لحظاتٍ، عينيْنِ كأنّهما منظارٌ سحريٌّ قادرٌ على استدعاء مقاطعَ من الماضي والحاضر والمستقبل في آنٍ معًا.

عرفنا، دون أنْ نتحدّثَ في الأمر، أنّنا سننامُ معًا في تلك الليلة. منذ أنْ بدأنا نلتقي، سواء من أجل تناولِ شيءٍ سويّا أو من أجل الذهابِ إلى الصيدليّة، تحوّلنا إلى زوجيْن. كما لو أنّ حصيلةَ كليْنا لا يمكنْ أنْ تُفضي إلى شيءٍ آخر سوى هذا، كما لو كنّا المعادلةَ المكتملةَ والتّامةَ لشيءٍ مّا، وإنْ كنّا لم ننجحْ في التوصّل إلى ماهيّته، وقد لا ننجحُ أبدًا.

- لماذا لا نعودُ حبيبيْنِ من جديد؟

نفذت الشّمسُ من خلال الستائر الورديّة الحائلةِ وأغرقت الغرفةَ كلّها في ضوءٍ ذهبيٍّ فاترٍ، شعاعهُ ضاربٌ إلى الحمرة. فشعرتُ بتلكَ السعادةِ الساذجة الطّائشةِ التي تصحبُ الاستيقاظَ من النّوم بعد ليلةٍ مليئةٍ بالقُبلِ، والعضّ أحيانًا.

فتحَ أوسكار عيْنه وأخذ يضحك. أتذكّرُ أنّه في واحدةٍ من المرّاتِ التي نمنا فيها معًا، غادرَ إلى العملِ باكرًا وسرعان ما وصلتني منه هذه الرسّالة: «أحبُّ أنْ أفتحَ عيني وأجدك إلى جانبي». وهكذا دخلنا تلك الدوّامةَ التي تحوّلُ الفانينَ إلى آلهةٍ لا تُقهر وتجعلهم يشعرون لفترةٍ من الزّمن أنّهم ليسوا وحيدين. وأنا، التي كنتُ أظنّ أنّ نهايةَ قصّتي مع غيليم كانتْ تعني النفيَ النّهائيّ من تلك الأرضِ، رجعتُ أسكنها مرّةً أخرى بالثقة والاندفاعِ والعمى والامتنانِ السابقِ ذاته. إنّ من بين الأشياء الأكثر إثارةً في الحبّ قدرته العجيبة على أنْ يولَدَ من جديد. لم تطأ قدمي، ثانيةً، تلك الجزيرةَ السّريّة التي لا نعرفُ الوصولَ إليها. لكنْ يأتي يومٌ نفتحُ فيه أعيننا، كما يحدثُ في السحر، فإذا بنا على أرضها مجدّدا.

- تعاليْ هنا.

- كلاّ، لا أريد.

تستنفدُ مطارحةُ الغرامِ صباحًا كلّ الطاقة التي راكمتُها أثناءَ النّوم وتحوّلني إلى فتاةٍ كسولةٍ تُمضي فترةَ نقاهة، وأظلّ بقيّةَ النهار، رخوةً كأنّني بلا عظامٍ. في ذلك اليوم كنتُ سأذهب إلى المقبرةِ لزيارتك.

- تعاليْ، تعاليْ، انظري. رفعَ الملاءةَ وبابتسامةٍ عريضةٍ أراني جسدَه اليقظ.

لكنّني لم أكنْ أريدُ أنْ ألجَ ذلك البحر ثانيةً، كنتُ أحتاجُ إلى لمس التراب، وأشجار الزيتون الجافّة ذات الأغصان المتشابكة، والحجارة المُلتهبة، والغيمات العالية الشّاحبة.

- أوسكار، أتحدثُ بجديّة. أريدُ أنْ أكون رفيقتك. قلتُ بإلحاح، وبنبرةٍ لا تختلفُ كثيرًا عن تلك التي كنتُ أستخدمها كي أقنعَ المربيّةَ بأنْ تشتريَ لي قطعةً أخرى من المثلّجاتِ أو تسمحَ لي بأنْ أشاهدَ فيلمًا للكبار. مزيجٌ من توسّلٍ وأمر، على طريقةِ القطط.

- بلانكيتا، لا أرغبُ في شيء أكثر من هذا، تعلمينَ ذلك، لكنّهما يومانِ وترسلينني إلى الجحيم ثانيةً.

- كلاّ، كلاّ. -قلتُ وأنا أحرّكُ رأسي بحدّةٍ محاولةً أنْ أكنسَ، بغرّتي التي كالقشّ، كلّ شكوكنا-. فأنا لا أمارس الحُبّ مع أحدٍ مثلما أفعل معك.

مازلتُ غيرَ قادرةٍ على استيعابِ ما يؤكّده لي جسدي، في كلّ مرةٍ، وعلى نحوٍ لا يُدحض، بأنّني مخلوقةٌ من أجلِ هذا الرّجل، فيما تسعى الحياةُ دومًا إلى إنكاره بالقدرِ ذاتهِ من الحدّة والحزم.

- نظرَ إليّ لحظةً بابتسامتهِ الذئبيّة قائلًا: هذا لا يكفي. لا بأسَ به، لكنّه لا يكفي. وأنت تعرفين ذلك. ثمّ بدا عليه التّعبُ فجأةً،

مثل ممثّلٍ أمضى أعوامًا وهو يلعبُ الدّور ذاته أمامَ بطلةٍ أصغرَ منه سنًّا بكثيرٍ وأقلَّ خبرةً.

- لكنّه كثير. -قلت، متذكّرةً تلك الرّعشة الخفيّةَ وشعورَ الذّهول والامتلاء اللذينِ شعرتُ بهما الليلةَ الفائتة-. فأنْ نبقى منجذبيْنِ الواحدَ إلى الآخر بالطّريقةِ ذاتها بعدَ كلّ هذه السنوات هو شيءٌ كثير.

- نعمْ، إنّه أمرٌ لا يُصدّق. -ابتسمَ قائلًا. وتراجعَ عن عناده. تراجعَ أمامَ الإطراء طبعًا مثل كلّ الناس، وأمامَ الضّوء الذّهبيّ الذي كان يغمرُ الغرفة، وكتفيّ المدوّريْنِ الناعميْن وجسده المتينِ اللّدن في آنٍ، مثل جسد المراهقِ، الذي لا يقدرُ على مقاومةِ نداءاته الحسيّة بما أنّها لا تنالُ من صحّته-. ثمّ أردف قائلًا: أنا حينَ أراكِ يخطرُ لي: «أريدُ أنْ أطارحها الغرام، أريد ذلك حقًّا».

- كما أنّنا مغرمان.

- نعم، مغرمان كثيرًا. -بقي صامتًا للحظة-. لكنّنا لم نحتمل بعضنا بعضًا. أنتِ لم تحتمليني، ولقد أفقدتني صوابي. لم يفقدني أحد صوابي قدر ما فعلت.

أخذتُ أضحك، مع أنّني لم أعدُ أجدُ، منذ مدّةٍ طويلة، أنّ إغاظةَ الزّوجِ جديرةٌ بالاحترام، بل هي من أدنى الدّرجاتِ في سلّم العشق.

- أتذكُرُ عندما ركبنا الدّراجة مرّة، وقد غضبتَ كثيرًا، ولا

يحضرني السبب الآن، فأنزلتني وتركتَني هناكَ مرميّةً في منتصف الطّريق؟

- وقد نزعتِ الخوذةَ عن رأسي وكدت تتسبّبينَ في حادث؟

- فلنتزوّج. قلتها بالسّرعةِ والخفّةِ التي أتحدّثُ بها عادةً في المواضيع المهمّةِ والحرجة. لا أستطيعُ التّحدثَ بجديّةٍ على مدى ساعاتٍ إلاّ عن أشياءَ بلهاء. أمّا الأمور المهمّة، كالحبّ والموتِ والمال، فأطلقها سريعًا، أُنجزها بعبارةٍ واحدة، أو برفعةِ حاجب، أو بضحكةٍ عصبيّة، من باب الحياءِ ربّما، أو من بابِ الفتورِ الرّوحيّ أو لضعفٍ في شخصيّتي. وإنّ أسكار يعرفُ ذلك عنّي أيضًا، وهو أذكى من أنْ يجيبني بجديّةٍ على عرضٍ بقينا لأسبابٍ مختلفةٍ، بدافع الحبّ أو الغيرةِ أو الخوفِ، نصوغه على مدار سنوات.

فأخذ يضحك.

- هل أنتِ مجنونة؟ وأينَ نعيش؟ لا أستطيعُ التأقلم في بيتكِ.

-آه! فكّرتُ في العليّة الخشبيّة المُضيئةِ التي أعيشُ فيها مع الولديْنِ كما في جُحرٍ مريحٍ معلّقٍ بينَ الأشجار، لها رائحةُ المشمش والورد الجوريّ وبسكويت ماريّا[1] تلك الرّائحةُ التي لا تربكها سوى رائحة الخشبِ والفلفل والطّحلبِ؛ رائحةِ رَجُل. لا أستطيعُ تركَ عليّتي. فأنا أحبّها كثيرًا.

بقينا صامتيْنِ للحظة.

---

(1) ماركة بسكويت شهيرة في إسبانيا.

- أترين؟ لستِ على استعدادٍ لتقديمِ أيّةِ تضحيةٍ لأيٍّ كان.

- هذا ليس صحيحًا. قلتُ مُبديةً قليلًا من الاحتجاج.

- لستِ قادرةً على التنازلِ عن تلك الحياةِ الفوضويّة الطّفوليّةِ التي تعيشينها، رغبةً منكِ في الاختلاف عن الآخرين دومًا، في القيام بعكس ما هو سائدٌ.

- ليس صحيحًا. لو لم تكنْ صارمًا وعنيدًا إلى هذا الحدّ. رأيتُ تعبير وجهكَ البارحةَ حينَ تناولَ الولدان فطيرةَ الشكولاتة الثالثة.

- إنّها حماقة. ثلاثةُ فطائر من الشوكولاتة ليست عشاءً. ولا أدري لمَ عليهما تناول العشاء خارجَ البيتِ دومًا. إنّه التبذيرُ لمجرّدِ التبذير.

وتذكّرتُ النّقاشات اللاّنهائيّة حوْل مدى ضرورة شراء حذاءٍ رياضيٍّ آخرَ لنيكولاس. وحول ميْلي للتّبذير -من مالي الخاصّ وليسَ من ماله أبدًا-، وحول الولديْنِ اللّذين لا يستطيعانِ القيامَ عن الطاولةِ قبلَ أنْ يُنهيا طعامهما، ولا يستطيعانِ مشاهدةَ التلفاز أكثر من ساعةٍ في اليوم، ولا النوم في سرير الأبويْن، وأنّ لديهما من الألعابِ ما يفوقُ الحدّ، وحول عاملة المنزل تلك التي لا تسرق لكنّها كسولةٌ، فكنتَ تتأخّرُ في دفع مستحقّاتها أيّامًا كي تجعلهَا تلاحظُ عدم رضانا عن نتائج عملها، وحولَ المطعَمِ الذي، صحيحٌ أنّه كان رائعًا، لكنْ كان بوسعنا أنْ نأكلَ الشيءَ ذاته في البيْت. وذاك اليوم الذي أثلجتْ فيه سماء برشلونة وكانَ علينا أنْ نذهبَ لإنقاذ الولديْن مشيًا

على الأقدامِ حتّى الطّرفِ الآخر من المدينة، وهو ما عِشته أنا بوصفه مغامرةً عجيبةً -بطلة القصّة بحذائها المنقوعِ في الماء تناضلُ ضدّ عناصرِ الطبيعةِ كي تذهبَ لإنقاذِ صغيريها اللذَيْن لم يستطيعا العودةَ إلى البيْتِ مع جليستِهما لأنّ القطار السّريعَ قد تعطّلَ ولم يكنْ هنالك سيّارة أجرة، في جوٍّ فوضويٍّ مليءٍ بالبهجةِ وبالثّلجِ الشبيه بالقطن، وأضواء السياراتِ تنعكسُ -مثلَ أضواءِ يوم الميلاد- على ندف الثّلج الصغيرةِ التي كانتْ تشوّش رؤيتي فوق الرّموش وتلتصقُ بشفتيّ-، بينما عاشه هو مثلَ كابوسٍ خانق. كانتْ خطوات حياةِ أوسكار المحسوبةُ والواقعيّةُ، والتي لا يساومُ عليها، مثلَ قضبانِ السّجن بالنسبةِ إلينا. فيما كانَ تقلّبُ أمواجي المستمرّ مرادفًا عنده للخفّةِ والابتذال والمبالغةِ في الثقةِ بالآخرين والإهمال.

- حسنًا، فلنكنْ حبيبيْنِ على الأقلّ.

- كلاّ، أريد كلّ شيءٍ أو لا شيء.

- سنتحدّثُ لاحقًا في الأمر.

- تحدثنا فيه ألفَ مرّة، يا بلانكيتا. أنتِ لا تريدين علاقةً معي -قالها بتعبٍ وصوتٍ خفيض-. أو لا تريدينها معي أنا. -أردفَ قائلًا بتلكَ النّبرةِ المحايدةِ التي نقولُ بها الأشياء فتقتلُ بحدّ السّكين ذاته وبالحركةِ ذاتها، قائلها ومتلقّيها في آنٍ معًا-. وفي كلّ الأحوال، عليّ المغادرة، إذ ينتظرني كثير من العمل في برشلونة.

كنتُ أعرف أنّ هذا ليس صحيحًا، كان يومَ جمعة في الصيف، وقد صار مؤخّرًا يمضي عطلةَ نهايةِ الأسبوعِ مع صاحبته.

- ستذهبُ مع تلك الساقطةِ ذاتها؟ أليسَ كذلك؟ لم أكنْ أريدُ أنْ أحزن، فالحزن في نهاية الأمر شعورٌ مُرهَفٌ، تامٌّ وعميقٌ وطويل الأمد. لذا فضّلتُ أنْ أغضب.

- ليستْ ساقطة، فهي طيبةٌ جدًّا. قال.

قمتُ من السّرير مُدمدمةً:

- آه! طيّبة، حقًّا إنّ هذه فضيلةٌ مهمّة. همسْتُ، وصفقتُ الباب غيرَ آبهةٍ بتوسّلاته الهزليّة.

أمضى أوسكار بقيّة ذلك الصّباحِ بمزاجٍ رائقٍ يرسلُ الرسائلَ ويستقبلها. وانصرفَ بعد الأكل مباشرةً.

- سأكون دومًا إلى جانبك. -قال لي حينَ ودّعني-. ولنْ تخسريني أبدًا.

- حقًّا؟ قلتُ له.

- طبعًا، فلن يحبّك أحدٌ مثلما أحبّك. قال مؤكّدًا، بتعبيرٍ جدّيٍّ.

- من يعرف، ربّما ثمّةَ أحدٌ. أليسَ هذا ممكنًا؟

وأردفَ كما لو أنّه لم يسمعْ ما قلت:

- في كلّ الأحوال، الحياةُ دوّارة، لا نعرفُ ما الذي تخبّئه لنا؟

- هذا أكيد.

لكنْ لعلّ حياتنا، نحنُ الاثنين، دارتْ ودارتْ قدر ما تستطيع، وها هو دولابُ الرّوليت يتوقّف هذه المرّة الأخيرة عندَ رقمٍ خاسرٍ.

وها نحنُ خاليًا الوفاضِ تمامًا. أودُّ لو أستطيعُ إعادةَ بناءِ عالمنا، أو لبنةٍ منه، وأنْ أعيدَ بالقطع التي تبقّت لديّ، تركيبَ صورِ الأحجية، فيعودُ شيءٌ مّا إلى سابقِ عهده، وألاّ أُضطرّ إلى البحثِ عن مغامرةٍ أخرى بعدَ الآنَ أبدًا. لكنْ أظنّ أنّ القطعَ النّاقصةَ كثيرةٌ جدًّا.

حاولَ أنْ يقبّلني على شفتي، لكنّني أشحتُ بوجهي.

وحينَ أغلقتُ الباب عبّرَ غيليم عن ارتياحه، فقد سرّه أنْ يصيرَ مجدّدًا الرّاشدَ الوحيدَ في هذه المجموعة (فداميان، لكونه مجرّدَ زائرٍ بلا أيّةِ علاقةٍ عاطفيّةٍ معي، لم يكنْ يُعتدُّ به):

- خيرًا فعلَ بمغادرته. هذا الرّجلُ صعبٌ للغاية. لا أفهم ماذا تجدينَ فيه.

حاولتُ أنْ أضحك.

- نعم، أنتَ محقٌّ. منذُ يوميْنِ، لم يشأ أنْ يتناولَ الولدان فطيرةَ شوكولاتة ثالثة على العشاء.

يومها أعطيتُهما نقودًا كثيرة كي يذهبا ويشتريا الفطائر المحلاّة من مطعم الأرختنينو[1] المجاورِ للكنيسة، وقلتُ لنفسي إنّه لا شيءَ يستحقُّ الحزنَ إلى هذا الحدّ، وإنّ الحياةَ هكذا، مليئةٌ بالتقلّبات، لكنّني في الواقع شعرتُ كما لو كنتُ قد ابتلعتُ شظيّة زجاج.

---

(1) اسم مطعم شهير هناك.

13

انصرفَ الأولادُ إلى النّومِ باكرًا، مُنهكين، بعدَ يومٍ آخرَ أمضوه في البحر. كانتْ الشرفةُ معتمةً ويسمعُ منها دِفء الصخب الصيفيّ ومرحُه. وبدتْ الكنيسةُ المهيبةُ المضاءةُ، كأنّها خشبة مسرحٍ، وكما لو كانتْ تنتقمُ لنفسها من دور البطولةِ الذي حظي به البحرُ ليلًا -البحرُ الذي اكتفى في تلك الساعةِ، خانعًا مثل بحيرةٍ مُعتمةٍ وساكنة، بأنْ يعكسَ ضوء القمرِ الأبيض وضوءَ مصابيحِ القريةِ الأصفر، ويأخذَ البيوتَ التي تتكدّسُ حوله، تحت جناحيْهِ المبيّضيْن بالجِير. كنت أنا وداميان، ندخّن سجائر الحشيش التي كانتْ إليسا مُنهمكةً في إعدادها لنا، مثل طفليْنِ مريضيْنِ يتناولان العقارَ من يدِ أمّهما. رأيتُهما يتهامسانِ في الطّرفِ الآخرِ من الشّرفة، كانت مُنحنيةً إلى الأمامِ قليلًا تحدّثه دون أن تنظرَ إليه، وكان مُصغيًا إليها فيما ينظرُ إلى البعيدِ ويبتسم. وكان غيليم وصوفيا يشربان -لم أرَ غيليم يدخّنُ الحشيشَ يومًا، ولا أوسكار- وكان يحاولُ إقناعها بأنْ يساعدَها في اقتلاع الأعشابِ الضّارةِ التي كانتْ تجتاحُ الحديقةَ الخلفيّة. حضرَ بعضُ أصدقاءِ داميان الذينَ كنتُ قد التقيتُ بهم في عشاءاتٍ ومناسباتٍ اجتماعيّةٍ سابقة.

كنتُ ألمحهم خلاَل لحظاتٍ من صفاء الرّؤيةِ القليلةِ والحادّةِ التي

يمنحها الكحول والحشيشُ، والممزوجةِ بمشاعر النفورِ والأفكار السوداء حول أوسكار، وحول سانتي أيضًا الذي كنتُ سألتقي به في اليومِ التالي. كانَ الرّجلان في هذه المجموعةِ يتعاملانِ بلطفٍ بالغٍ ورسميّة، ويستخدمان الثقافةَ وحسّ الفكاهة المحسوب بدقّةٍ كنوعٍ من الاحتماء من العالم، وكنوعٍ من صرفِ الأنظارِ عن هيئتهما الجسديّةِ المُزعجةِ والمُفتقرةِ للجاذبيّة -والتي لم تكنْ تمنعهما مع ذلك من التعسّف والقسوةِ في إصدار الأحكامَ حول الجمال الأنثويّ-، وهو نوع من فروسيّةٍ مُتكلّفةٍ ومُجاملَةٍ بديلةٍ عن حُسنِ التربية، وأسلوبِ لبسٍ متأنّقٍ على طريقةِ البرجوازيّة الصغيرة، كما لو أنّ الأمّ هي التي كانتْ ما تزالُ تختارُ لهما الثيابَ وتكويها. أسلحتهما الذّكاءُ وحسّ الفكاهةِ وعينٌ لا تخطئ في التقاط بؤس الآخرين وعيوبهم. وكلاهما يمارسُ الكتابة. أمّا الفتاتان، فجميلاتانِ رقيقتانِ، فَطنتانِ، حذرتانِ ومتحفّظتان. تتكلّمانِ قليلًا وبحلاوةٍ وبشاشةٍ تشي بقلّةِ ثقتهما في الآخرين. وتنظران حولهما من غيرِ أنْ يلحظهما أحدٌ. جاؤوا ومعهم الغيتار. أخذ خوانيتو، الأقصرُ والأطرفُ والأكثر غموضًا، يعزفُ ويغنّي. وشاركَتْه النّساء. غنّوا بعذوبةٍ وحماسٍ أغنياتِ حبٍّ من أمريكا الجنوبيّة. وفكّرتُ في أنّ إحداها قد تكون تلك التي كانت تعجبكِ حينَ كنتِ تتردّدينَ على حانةِ السيّد نفسه. وما إنْ سمعتْ صوفيا أوّل نغمةٍ من أغنيةٍ شعبيّةٍ تعرفها جيّدًا، حتى أخذت تغنّي بصوتٍ عالٍ وترقصُ مع غيليم. اقتربَ منّي بيدرو، صديقُ داميان الآخرُ، مُبديًا اهتمامًا وحنانًا كعادته دائمًا. حدّثني عن آخرِ إقامةٍ له في نيويورك، وعن ابنيه نصفِ الشّقيقيْنِ، المُشتّتيْنِ في العالم، فأحدهما

هنا والآخرُ في أمستردام، وعمّا يكلّفانه من نفقات. وكنّا قد خرجنا لتناول العصرونيّة معًا أكثر من مرّة وكانَ، دومًا، يصرُّ علانيّةً -ربّما زيادة عنِ الحدّ قليلًا- على دفع الحساب.

- كيفَ حالكِ؟ سألني.

- لستُ على ما يرام. مُتعبة. أفتقدُ أمّي كثيرًا. -وفكّرتُ أنّه ربّما كان عليّ أنْ أكذب عليه. أنْ أقولَ له إنّ كلّ أموري تحتَ السيطرة. صارتْ الحقيقةُ بابًا لا أفتحهُ إلاّ قليلًا، فجدارُ الكذبِ العالي الزّلقُ ذاك والمجاملةُ والابتسامةُ العابرةُ تحميني مثلَ معطفٍ، لكنّني في ذلك اليوم لم أكن أمتلك القوّةَ ولا الرّغبةَ في نصبِ هذا الجدار-. أحيانًا يتملّكني الإحساسُ بأنّني قد فقدتُ كلّ شيء. أردفتُ قائلةً ومُنتظرةً أنْ يجيبني بالصمتِ الذي يغلّفُ أجواء الموتِ عادةً.

أخذتُ نفسًا آخر من الحشيش. ونظرتُ إلى داميان، الذي كان، من طرفِ الشّرفةِ الآخر، كأنّه مرآتي، يدخّن أيضا على مهلٍ، وكانتْ عيناه المحمرّتانِ اللاّمعتنانِ تحدّقانِ طويلًا في عينيّ كما لو كانتا مرآةً غبّشها الدّخان، كأنّ كلّ واحد منّا يحاول التعرّفَ على الآخر. ابتسمتُ له. لا بدّ أنّه رفيقٌ ممتعٌ لليلاتِ السكر، شغوفٌ وشجاع، وأحسبُ أنّ إليسا، إلى جانبِ كونها بمثابة أمٍّ ورفيقةٍ له، فإنّها تحميه من نفسه أيضًا.

- ولكنْ فلنفكّر في الأمر يا بلانكا. نعرفُ جيّدًا أنّ ما تقولينه ليس صحيحًا. -قال بيدرو قاطعًا حديثي، وكاسرًا لحظةَ

الوصلِ المُخدّرة الخاملة التي، على غير ما هو متوقّعٌ، جمعتْني بداميان-. فأنتِ لا تبدينَ شخصًا مُستسلمًا. قالها على نحوٍ مفاجئ وخاصٍّ، وقد اتّسعتْ عيناه النشوانتانِ الثاقبتان، كأنّه أدركَ فجأةً أنّه يتحدّثُ إلى شخصٍ أشدّ حماقةً ممّا كان يظنّ. فشرحتُ له:

- أعْني أنّ أكثر الأشخاصِ الذين أحبهّم قد توفّوا وأنّني قد خسرتُ كثيرًا من أماكنِ طفولتي وشبابي.

- لكنّكِ كنتِ تتأمّلين هؤلاء الأشخاص وتلك الأماكن حينَ كانتْ لك. أليس كذلك؟ تابعَ حديثه بالنبّرة المنفعلةِ قليلًا، تلك النّبرة التي يتحدّثُ بها أستاذٌ أمامَ تليمذٍ خيّبَ أمَلَه. وانتبهتُ إلى أنّ كليْنا كانَ واقعًا تحتَ تأثير الكحول.

- نعم بالطّبع. بوسعي أنْ أصفَ لك كلّ رُكنٍ من بيْتِ والدتي. أعرفُ تدرّجاتِ الألوان كلّها -من المهاجوني إلى الأحمر القاني إلى الأسود- التي كانت تكتسبها، من ساعةٍ إلى أخرى وتبعًا لحركةِ الشّمس، خزاناتُ خشبِ المهاجوني حيثُ تحفظُ كتبَها، وأتذكّرُها جيّدًا. وأعرفُ حرارةَ الخبزِ الطّالع توًّا من الفرنْ، حرارةَ يدي أبي. وبوسعي أنْ أرسم لك كأس النّبيذ الأحمر الصغيرة نصفَ الممتلئة التي كان يضعها دومًا في المطبخ. هل تريدُ أنْ أرسم لك ذلك. بوسعي أنْ أرسمه لك حالًا. اذهب وأحضر قلم رصاصٍ وورقةً وسأرسمه لك.

- عزيزتي. -تابعَ دون أنْ يتركَ مكانه حذْوي-، إنّ التأمّل،

وليس الحبّ وحده، يجعلنا نمتلكُ الأشياء والمدنَ التي زُرناها، والقصصَ التي عشناها والناسَ وكلّ شيءٍ. كلُّ الأشياء التي مررْتِ بها وأوليتها اهتمامَكِ وتركيزَك، هي لكِ. وبوسعكِ أنْ تستعيديها وقتما تشائين. أردف وقد تغضّن وجهه الصارمُ، وجهُ قهرمان القبطان هادوك[1]، فبدا كوجه دُميةٍ بشعة، وراودتني رغبةٌ في بسطه بأطرافِ أصابعي. لكنّني اكتفيتُ بمناولته سيجارة الحشيش.

- كلاّ يا رجل. كلاّ. -وانتبهتُ إلى أنّني لم أنادِه بـ «رجل» قبل اليوم-. أعتقدُ أنّ ثمّةَ أشياءَ قد فقدناها إلى الأبد. وفي حقيقة الأمر، نحن نساوي الأشياء التي فقدنا، أكثرَ من تلك التي نملِك.

رفعتُ نظري نحو غرفتكِ المُعتمة التي تحرسها باتوم عند البابِ منذُ وصولنا. وفي نهايةِ المطاف، لم أذهبْ ذلك اليوم أيضا، إلى المقبرةِ لزيارتك.

أخذَ خيطٌ يُنسجُ شيئًا فشيئًا بيننا نحنُ الّذين وقعنا تدريجيّا تحتَ تأثير الكحول. شبكةٌ من خيوطٍ عنكبوتيّة تتجاوزُ لا إراديًّا من هم صاحون. ابتسمتُ لداميان من خلال الضّباب، وقد بدا بعيدًا جدًّا. وحدّقتُ كي أراه على نحوٍ أفضل. وإذ بإليسا -التي تكادُ لا تشربُ أبدًا، ولا تدخّنُ سوى التّبغ، الصّارمةُ مع الجميعِ عدا الرّجال الذين تصاحبُهم- ترمقني بنظرة استفهام عاصفةٍ أحسستها تندلقُ على

(1) القبطان هادوك شخصيّة رئيسة في فيلم الرّسوم المتحرّكةِ الفرنسّي تان تان.

وجهي مثل شيءٍ مُزيّتٍ منفّر، فيما تابعتُ الحوارَ الأبكمَ الطّائش الذي كنتُ قد بدأتُه مع عيني صاحبها وقد صارتا الآن أكثر غموضًا وإرباكًا. أشرتُ له كيْ ينضمّ إلينا، خشيةَ أنْ يذوبَ في ضبابِ الدّخان والغبش ويتلاشى بالكاملِ. جلسَ إلى جانبي وأخذ يتحدّثُ مع بيدرو. بدا لي كلُّ شيءٍ رائعًا، للحظةٍ، وأن لا وجود لخسارات وأنّ بيدرو كان مصيبًا. امتزجتْ الموسيقى مع أصواتِ أصدقائي ومع هدير البحر مثلَ تهويدةٍ مألوفةٍ وطاردةٍ للأذى. أسندتُ رأسي إلى كتفِ داميان وأغمضتُ عينيّ.

استيقظتُ بصداعٍ هائلٍ سببه لي الشّرب ليلةَ أمس. لا بدّ أنّ الوقتَ كان متأخرًّا، فلمْ أسمع أصواتَ الأطفالِ، ولا شكّ أنّهم صاروا على الشاطئ الآن، ثمّ إنّ ضوءًا سليطًا لا يرحمُ كانَ يدخلُ عبر النافذة ويخِزُ جفوني وصدغيّ حتّى بعد أنْ أُغمضَ عينيّ. ارتديْتُ مبذل غادةِ الكاميليا القصير الخاصّ بي. وصعدْتُ الدرجَ على مهلٍ وحذرٍ وبخفّةٍ متناهيةٍ حتى لا ترنَّ خطواتي في رأسي المُتعب. أعددْتُ شرابًا من الأعشابِ وأخذتُ أقلّبُ جريدةً قديمة. وفي تلك اللّحظة، ظهرتْ إليسا.

- أهلًا!

سعدتُ برؤيتها، فمنذ أنْ بدأت تخرجُ مع داميان لم أعدْ أتحدّثُ إليها إلاّ نادرا.

- كم كانت رائعةً ليلة أمس! أليسَ كذلك؟ أصدقاؤكما لطيفون للغاية وكان إحضارُ الغيتار فكرةً رائعة، يجبُ أنْ نكرّرها.

أردفتُ قائلةً.

نظرتْ إليّ بجديّةٍ ودون أنْ تتفوّه بكلمة. وبدا على ملامحها تعبٌ وهالاتٌ سوداء، ليست تلك الهالاتُ التي يسبّبها فرطُ المتعةِ والقُبلات، بل هالاتُ أرقٍ وقلق.

- إليسا، ما الذي حدث؟

-تعلمين جيّدًا ما حدث.

- كلاّ لا أعلمُ ما حدث. -وكان رأسي يؤلمنى حتّى الموت، فلم يكن عندي قدرةٌ على التفكير في الأمر-. هلاّ أخبرتني من فضلك؟ وبدأتُ أشعرُ بشيء من التوجّس، وقلقٍ غامضٍ يتعلّقُ بضبابِ الليلةِ الفائتة.

- ما حدثَ هو أنّني رأيتُ البارحةَ أمرًا أقلقني وأحزنني كثيرًا. وبقيتْ صامتةً تنظرُ إليّ بالتعبير القاسي والحادّ ذاته الذي كانت تنظرُ إليّ به الليلة الفائتة وقد تذكّرته الآنَ.

- ماذا رأيْتِ؟

- رأيتكِ تودّعينَ داميان.

أخذتُ أضحكُ، وفكّرتُ في أنّها تودُّ أنْ تمازحني.

- نعم، وقد قبّلني من فمي، كما يفعلُ دوْمًا.

أعتقدُ أنّها لم تكن المرّةَ الأولى، ولن تكون الأخيرةَ التي أودّعُ فيها صديقًا بعدَ ليلةٍ احتفاليّة، بقبلةٍ عابرةٍ على الشّفتين. وفي حالةِ

البارحة، كانَ هو المبادر، وفكّرتُ للحظةٍ في صدّه، لكنْ قلتُ لنفسي، متسليّةً، إنّه كانَ مُتماديًا (ففي زمنِ الجبناءِ يستحقُّ الجسورون التلقائيّون بعضَ الاعتبار)، ولمحتُ بالقربِ منّا نظرةَ إليسا المُبهمة، مثلَ شرارةٍ، غيرَ أنّ الأمر جرى بسرعةٍ كبيرةٍ، ولم أكدْ أُنهي فكرتي حتّى كانَ قدَ طبعَ قبلته على شفتيّ وانتهى الأمر.

- آه! هو الذي فعل! هذا أرحم!

- نعم، ومن ثَمّ قبّلني بيدرو.

- بلانكا، عزيزتي، لا أتحدّثُ عن بيدرو، فأنا أعرفُ أنّ كثيرًا من النّاس يقبّلونك.

أخذتُ أضحكُ من جديد، وأنا لا أصدّقُ بأنّ هذا الحوار، غير اللائق بنا وبصداقتنا، كان يدور بيْننا.

- إليسا، أحقًّا يمكنُ أنْ يخطرَ لكِ أنّني أحاولُ إغواء صديقكِ؟ هل جُننتِ؟

- نعم، قد أكون مجنونةً تمامًا، ولكنْ أعرفُ جيّدًا ما رأيتُ... ومن الطبيعي أنْ أجدَه سيّئًا.

- إليسا، لم يقبّلني، بالكاد تلامست شفتانا وحسب، وقد كنّا تحتَ تأثير الكحول. نحنُ صديقان. وفي النهايةِ أعدكُ بألاّ أعطيَه أيّةَ قبلةٍ من أيّ نوع في المستقبل.

- بلانكا، عزيزيتي، منذُ وقتٍ وأنا أرى كيفَ تلاحقينه.

أخذتُ أضحكُ من جديد.

- أنا أرتاحُ لداميان وهذا كلّ ما في الأمر. ولكنْ حسنًا، سأعِدُكِ بألاّ أظهرَ ودّي له عبرَ الحركاتِ الجسديّة. إليسا! -وقفتُ وأمسكتها من كتفيْها كأنّني أحاولُ إيقاظها من كابوس-. هل تعتقدينَ حقًّا أنّني على علاقةٍ بداميان؟ هذه حماقةٌ مطلقة.

- آه، واضح! -قالتْ وقد اشتدّ غضبها-. ربّما إقامة علاقةٍ مع داميان أمرٌ منفّرٌ جدًّا ويجب أنْ أكون غبيّةً جدًّا لأُقدمَ عليه.

- كلاّ، كلاّ. ليس هذا ما أقصده. أنا لا أقيمُ علاقةً أبدًا مع رفيق صديقتي. عليكِ أنْ تعرفي ذلك. مع كلّ هذا العدد من الرّجال في العالم.. وقد بدأتُ أدركُ أنْ لا جدوى أبدًا مما أقول.

- لا تقيمينَ علاقة معه لكنّك تلتصقينَ به وتودّعينه بقبلةٍ على الشّفتيْن.

- أؤكّدُ لكِ أنّ الالتصاقَ برجلٍ أمرٌ مختلفٌ تمامًا. إليسا، نحنُ صديقان ولا شيء غير ذلك.

- بلانكا، ما بينكما ليس صداقةً وإنّما مُغازلة.

- الصّداقةُ هي دومًا مغازلة.

- ما دام كذلك! هيّا إلى الأمام! أتت بحركةٍ عريضةٍ من يديها كما لو أنّها تأمرُ جيشًا بالتقدّم.

- إليسا، إنّ داميان، في الحقيقة، لا يعجبني، وأنا أرتاحُ له

فحسب. كانتْ قبلةً ولم يكدْ يلمسُ شفتي. -ثمّ انتبهتُ إلى أنّ رأسي سيتصدّع بهذه المشكلة طوالَ اليوم-. وعلى كلّ حالٍ فإنّ القبلةَ على الفم ليستْ شيئًا حميمًا إلى هذا الحدّ. فأنا أفعلُ ذلك مع ولديّ ومع أصدقائي وصديقاتي. أردفت قائلةً.

- أتعرفينَ أمرًا، عزيزتي بلانكا؟ إنّ فكرتَكِ الطّفوليّةَ تلكَ حول ولادةِ مجتمعٍ جديد، وأنّ جيلنا آخذٌ من الناحيةِ النظريّةِ بتأسيسه دون أنْ ينتبه له أحدٌ، حيثُ كلّ الناسِ يتفاهمون ويتبادلون القبلَ مع من يشاؤون ووقتما يحلو لهم ويدخلون في العلاقات ويخرجون منها وينجبون أولادًا من هنا ومن هناك، لا تصلحُ إلاّ حينَ يُسقط المرءُ أيّ اعتبار للآخرين.

- أنا لا أقلّلُ من شأنِ الآخرين أبدًا.

- أنتِ لا يعنيكِ الآخرون في شيءٍ أبدًا، ولا حتّى ولداكِ ولا أمّكِ ربّما. أوَ تعرفينَ شيئًا؟ لقد ضقتُ ذرعًا من تحليلِ نفسيّتكِ. أمّكُ توفّيت، كانت طاعنةً في السنّ ومريضةً وقد عانتْ كثيرًا في الشهور الستّةِ الأخيرة وأتعبتكِ كثيرًا، لكنّها عاشتْ حياةً رائعةً، أحبّت ودخّنت السّجائر وحظيتْ بالنّجاح والأصدقاء والأولاد، واستمتعت بحياتها، وحسبما يقولون، فعلتْ دومًا ما رغبتْ فيه، وأنتِ كنتِ تحبّينها وحزنتِ من أجلها وشعرتِ قليلًا بالضياع، لكنْ هذا لا يعطيكِ الحقّ في قلب حياة الآخرين رأسا على عقب.

- أنا لم أشأ يومًا أنْ أقلبَ حياةَ أيٍّ كان. أتعرفين ما هي مشكلتك

يا إليسا؟ -ومن دون أنْ أمنحها وقتًا للرّد، أردفتُ قائلةً-: مشكلتك أنّكِ جبانة، ولهذا رفضتِ دومًا أنْ تجرّبي المخدّرات، ولهذا لا تريدينَ إنجابَ الأطفال، ولهذا أنتِ بحاجةٍ دومًا إلى وجود حبيبٍ بجانبكِ. بسبب الخوف. إنّك تعيشينَ في قفصٍ. اعترفي بذلك. قلتُ هذا مُتيقّنةً من أنّ صدغي الأيسر سينفجرُ فيتطايرُ جزءٌ من دماغي، وهذا وحده ما سينهي النقاش أخيرًا.

- من تقول لي هذا هي تلك الفتاةُ المرفّهةُ التي تعيشُ من ريع أملاكها، ولم تطأ يومًا في حياتها مشفى حكوميًّا، وتحتجُّ علينا إذا قرّرنا أنْ نلتقي في «الأحياءِ الفقيرة» التي أعيشُ فيها أنا بالطّبع. لا تخدعي نفسكِ، من تعيشُ في قفصٍ وفي عالمٍ غريبٍ تمامًا من الفانتازيا، ولا تعرفُ إلاّ القليلَ عن الواقعِ هي أنتِ.

- أنا لا أعيشُ من ريع أملاكي.

- أنا ذاهبة. من الصعب جدًّا النقاشُ مع شخصٍ لا يتحدّثُ على الدّوامِ إلاّ ليستظرِف. داميان ينتظرني عند موقفِ السيّارت.

وحينَ كانت تجتازُ الحديقةَ، قلتُ لها صارخةً:

- أوَ تعلمين إذن؟ قُبُلاتي أمرٌ يخصّني وحدي. ولا أعطي تفسيراتٍ لأحدٍ حول ما أفعلها به، أوزّعها على هواي، وأتقاسمها مع من أشاء، مثلَ المال. غيرَ أنّ القبلاتِ يملكها الجميع، فهي أكثرُ ديمقراطيّةً وأكثرُ خطورةً أيضًا، وتضعنا جميعًا في المستوى ذاته. ولو فعلتِ مثلِي، بل لو فعلَ الجميعُ الشيء ذاتَه، لغدا العالمُ أكثرَ

فوضويّةً ممّا هو عليه الآن، ولكنّه سيكون أمتعَ بكثير.

- وداعًا بلانكا.

قالتْ ذلك ملتفتةً نصفَ التفاتةٍ إلى الوراء ثمّ ذهبت. سمعتُ صوتَ صفيرٍ، وحينَ رفعتُ نظري، رأيتُ غيليم يطلُّ من النافذةِ، نظر إليّ بفمٍ فاغرٍ من الدّهشة، ووضعَ إصبعه على صدغه وأتى بإشارةٍ تعني «أنتما مجنونتان». فصفقتُ الباب بعنفٍ وأخذتُ أبكي.

14

ذهبَ غيليم لإحضار الآخرين من الشّاطئ، واصطحابهم في نزهةٍ على القاربِ وصولًا إلى المنارة، وبقيتُ أنا وحيدةً في البيْتِ مع باتوم. كنتُ أروحُ وأجيء مثلَ روحٍ معذّبة أمرّرُ على جبيني قطعةَ الجليدِ اللاّسعة في محاولة لتخدير الصّداع. أصبحتْ باتوم تعرفُ أنّكِ غيرُ موجودة، فلا تدخلُ إلى غرفتكِ، وتبقى عند البابِ في انتظارِ أنْ تأتي، متشمّمةً كلّ ركنٍ في البيْتِ بحثًا عن رائحتكِ أو عن أيّ علامةٍ تدلّ على أنّك عائدةٌ. وهذه هي حالتي أيضًا، فقد فكّرتُ في تكرارِ بعضِ الرّحلاتِ التي قمنا بها سويّةً، إلى أثينا أو البندقية أو نيويورك. فلربّما وجدتكِ هناك. قال لي غيليم أمس إنّ البيْطريّ قد أخبره بأنّ باتوم لن تعيشَ طويلًا، ويشكُّ في أنّها ستبقى حيّةً حتّى الشتاء القادم. إنّها آخرُ النتاجِ العظيم الذي وُلدَ في هذا البيْتِ وتقاسمتِه مع أصدقائك آنذاك. أتذكّرُ ضجري مقابلَ حماسكِ حينَ رأيتِ نانا وهي ترمي حُزَمًا من اللّحمِ النّابضِ اللّزجِ في كلّ أركانِ البيْتِ. أظّن أنّ تسعةَ كلابٍ قد وُلدتْ في ذلك اليوم، ماتَ أحدها بعدَ ساعاتٍ قليلةٍ لكنّ الأخرى نجتْ. بنيْتِ صندوقًا كبيرًا من الخشب ووضعتِه إلى جانبِ سريركِ ممضيةً أسابيعَ في مراقبتها والاعتناء بها، غير مكترثةٍ البتّة برائحةِ الحظيرةِ التي اجتاحت غرفتكِ الأنيقةَ ذات السّجادةِ

الحمراء بلون التّوتِ والمرايا وخِزاناتِ الماهوجني ولوحاتٍ لنساءٍ شهوانيّاتٍ. وحرصتِ على أنْ تأكلَ الأكثر نهمًا من بينها، وهي الأهزلُ والأضعف، وأنْ يُتاحَ لنانا، الأمّ، أنْ ترتاح. لم يكنْ من الصّعبِ إذن معرفةُ الطّفلةِ التي كُنْتِها. وقد أحببتُها أيضًا مثلما أحببتكِ.

نظرَتْ إليّ باتوم نظرةَ حزنٍ، إنّها تحبّني حبًّا لاَ عقلانيًّا ولا محسوبًا. لعلّ الحُبَّ الوحيدَ الذي يستحقُّ العناء هو ذلك الذي لا نستحقّه أبدًا. لكنّها باتتْ الآن كلبةَ غيليم، ولربّما كانت كذلك دومًا، فعلى كلّ حال هو من أعطاها اسمها. إنّ الأشياءَ -ولا أدري إنْ كانَ الأشخاصُ أيضًا- تنتمي إلى ذلك القادرِ على تسميتها. أخشى أنْ تموتَ هي الأخرى وأنْ تغدوَ هذه الضفّة من العالم خاوية. ثمّةَ أيّامٌ أشعرُ فيها بأنفاسِ موتاي تشدّني من عنقي وتدفعني إلى الأمام مثل قوّةٍ صامتةٍ ومتغطرسةٍ. لكنْ ثمّةَ أيّامٌ أخرى لا يكون فيها، من أمامي أو من خلفي، سوى هُوّاتٍ سحيقة. أفكّرُ في الكلب ري، بمعطفه الأبيضِ القديم الذي قَتم مع الزّمن، وقد بقيَ مِثلي بلا صاحبة.

كنتُ أنتظرُ أنْ يعودَ الولدانِ من نزهتهما البحريّة في القارب، سعيدَيْنِ مُنهكيْنِ، إدغار الذي تتذهّبُ بشرته في كلّ مرةٍ أكثر، ونيكولاس الذي يزدادُ نمشًا يومًا بعدَ يوم. لا أستطيعُ أنْ أمنعَ نفسي من الضّحكِ مثل السّاحرة الشّرّيرةِ في الحكاياتِ حينَ أفكّرُ في القلوب التي سيحطّمانها وتحطّمهما، وفي التراجيديّاتِ العاطفيّةِ التي تنتظرنا. كلاهما موهوب ومتهوّرٌ، وحسّاسٌ، وشغوفٌ وخجول. كلاهما مُعدٌّ سلفًا لهذه اللّعبة، وإنْ لم يكن على علمٍ بذلك بعد.

اعتذرتُ عن مشاركتهم الطعامِ وذهبتُ إلى غرفتي راجيةً أنْ يخفّفَ النّومُ والعتمةُ المُطبقةُ وجعَ رأسي. سمعتُهم يجلسون إلى الطّاولةِ بينَ ضحكاتٍ وصيحاتٍ، فيما جاءتْ صوفيا لتسألني إنْ كانَ يلزمني شيءٌ ولتضعَ لي بعضَ الكولونيا برائحة اللّيمون على جبيني. وبعد لحظةٍ، نزلَ غيليم إلى غرفتي.

قالَ وقد جلسَ إلى جانبي في السّرير:

- كيفَ حالُ غادةِ الكاميليا؟ ألستِ جائعة؟ كانَ ما يزالُ بثوب السباحةِ: سروالٍ مخطّطٍ بالأصفر والأزرق يصلُ إلى منتصفِ فخذه، وأحد التيشرتاتِ التي يرتديها حينَ يذهبُ إلى التدريس في المعهد. كانتْ الشمسُ قد لوّحت بشرَته كثيرًا وبدا مسرورًا.

- كلاّ، كلاّ. شكرًا.

- لا أدري لماذا تدخّنينَ هذه السجائر الكريهة.

- معك حقّ. هلاّ أعطيْتني يدكَ من فضلك وبقيتَ لحظةً بصحبتي؟

أمسكَ يدي مُدمدِمًا. لا يميلُ غيليم إلى التعبير الكلاميّ عن العاطفةِ ولا إلى التعبير الجسديّ عن الحنان، ولا إلى تلكَ الأشياء والمظاهر التي تصاحبُ التعبير عن الحبّ عند غالبيتنا. لكنّني أثقُ ثقةً عمياء في أنّه عندَ أيّ ظرفٍ صعبٍ لا يصدرُ عنه إلاّ الصّوابُ واللائقُ والرّحيم. أمّا بقيّةُ الأوقاتِ فيمضيها في السّخرية من نفسِهِ ومن الآخرين، والشّرب، والحرصِ على أنْ يتعلّمَ طلاّبهُ شيئًا عن

التاريخ. لم أكُن أعرف عنه ذلك حين كنّا معًا، ولا حينَ انفصلنا، لكنْ أعرفُه الآن، إذ مازال لدينا بعض الوقت.

- صديقتكِ صوفيا مجنونةٌ. قال بارتياحٍ، ولكنْ محدّقًا فيَّ بثباتٍ وإلحاح.

- نعم إنّها حقًّا شخصيّة غريبة.

- إنّها تُحبّكِ كثيرًا. لقد أمضت البارحةَ ساعاتٍ تتحدّثُ عنك. أردف قائلًا.

- أنا أيضًا أحبّها، إنها شخصٌ رائعٌ حقًّا. أنت معجبٌ بها، أليس كذلك؟

- لا بأس بها.. ولكن إنْ كنتِ لا تريدين ذلك... قال، تاركًا الجملةَ معلّقةً.

ابتسمتُ حينَ خطرَ لي أنني الآن على سرير الموتِ وأنّ زوجيَ السابقَ يطلبُ منّي الإذنَ بأنْ يخرجَ مع أعزّ صديقاتي. كنتُ أنا أيضًا بلا شكٍّ سأطلبُ مباركتَه إنْ أحببتُ ثانيةً. ففي نهاية المطاف، هو وأوسكار بمثابةِ الأبِ في حياتي، أكثر من غيرهما.

- امضِ في الأمرِ إذن. -قلتُ له، ضاغطةً على كفّه أكثر-. لكنْ إنْ آلمتكَ سأقتلها.

فابتسم.

- أتمنّى ألاّ تضطرّي إلى ذلك. -قالَ مُنهيًا الموضوع-. حسنًا سأصعدُ الآن. فالأولادُ لا يأكلون إنْ لم أشاركهم الطّعام.

وخرجَ بهدوءٍ وصمتٍ من الغرفة.

إنّ الغيرةَ تَفنى لحسنِ الحظ، فكّرتُ وأنا أضعُ مكعّبَ الجليدِ فوقَ عيني اليُمنى. أمّا الحُبُّ فلا، على الأقلّ في حالتي. فمازلتُ أحبُّ كلّ الناسَ الذينَ أحببتهم يومًا. ولا أستطيعُ منعَ نفسي من أن أرى، عبر مرّاتِ الهجرِ كلّها ومعظمِ الخياناتِ منْ جهتي أو من جهةِ الآخرين، الشخصَ النقيّ الواضح، الذي كانَ قبل أنْ يتحوّل كلّ شيءٍ إلى رماد. وبنوعٍ من البطولةِ الغبيّة، لا أتنكّرُ لقصص حبّي أو لأيٍّ من الجروحِ التي عشتها. ولو فعلت لكنت بذلك أتنكّرُ لنفسي. أعرفُ أنّ الأمرَ ليس على هذا النحو عند الجميع. فثوب العار سميكٌ ومتين. وكثيرون هم من يحملون ضغينتهم واستياءهم مثل أوسمة، مثل سيوفٍ مشهرةٍ بكثيرٍ من الكبرياء والعناد كما لو كانت ممتلكاتٍ وثرواتٍ يتباهون بها. كانَ قد مضى وقتٌ طويلٌ على انفصالنا أنا وغيليم! أحبّه، لكنّني حرّرته من حبّي، يستطيعُ المرءُ أنْ يتحرّر وحده، هذا أكيد. لكنْ من الأسهلِ دومًا لو تحلّى الآخرُ بالكرمِ ودفعكَ نحو حريّتك دفعةً كافية. وليس من السّهلِ التّنازلُ عن حبِّ أحدهم؛ بالمقابلِ فإنّ المسكين أوسكار يجرجرُ قيودي وأنا أجرجرُ قيوده، ثقيلةً مُجلجلةً، مثل شبحِ كانترفيل[1].

نِمتُ حتّى العصر، وعندما استيقظتُ وجدتُ رسالةً من داميان يعتذرُ لي فيها عن إيقاعي في هذا «المأزق»، ورسالةً أخرى من سانتي

---

(1) قصّةُ شبح كانترفيل الشهيرة لأوسكار وايلد.

يقترحُ فيها عليّ أنْ نتقابلَ للحظةٍ في فندقٍ مّا. محوتُ رسالة داميان دون أنْ أردّ عليها واتفقتُ مع سانتي على أنْ أراه مساءً.

قبل خروجي من المنزل، رأيتُ غيليم وصوفيا متشابكيْن في أرجوحة النّومِ على الشّرفة، وكانتْ أورسولا تغسلُ الصحون محدثةً ضجّةً كبيرة. وإدغار في غرفته يلعبُ على حاسوبه، والأولادُ الأصغرُ يغطّون في سباتٍ عميق.

اجتزتُ الحديقةَ يصحبني غناءُ الجداجِد. ذُعِرتْ عَظايةٌ صغيرةٌ عند سماعها خطواتي واختفت مسرعةً مهتاجةً بينَ الحجارةِ التي كانتْ محتفظةً بعدُ بقليلٍ من دفء النّهار. كانتْ القريةُ تعجّ بالنّاس والعائلاتِ السعيدة، والشباب المُفعمِ بالأمل، والأطفالِ الذين تملّكهم النعاس، والمتاجر المفتوحةِ والشرفاتِ المسيّجةِ بالقضبان أمامَ بحرٍ ساكنٍ بلون الفضّة المعتقّة. كانت فرقةُ باتشانغا[1] تعزفُ في السّاحةِ محاوِلةً تحفيزَ المصطافين على الرّقص دون أنْ تنجح كثيرًا في مهمّتها. ولم يغامرْ سوى بعضِ الآباء، محاطينَ بأبنائهم الصغار، مؤدّينَ بعض خطوات الرّقص الخجولة، على إيقاع الموسيقى. وحينَ مررتُ بالكازينو، رأيتُ الرّجلَ الغريبَ الغامض يجلسُ عند البابِ ويشربُ البيرّةَ مع أصدقائه، وعرفتُ الفتاةَ التي كانتْ معه في الجنازة، وقد نظرتْ إليّ مُبتسمةً. نهضَ عندما رآني واتّجه نحوي.

- مرحبا؟ كيف الحال؟

---

(1) اسم رقصة شعبيّة في كوبا.

انتبهتُ إلى أنّ أنفه متقشّر، وأنّ إصبع قدمه الأكبر يخرجُ من نعلهِ الخيشيّ المُغبرّ. ونظرَ إليّ باهتمامٍ من مسافةٍ معيّنةٍ، وكنتُ أعرفُ أنّ الساعاتِ التي أمضيْتها تحتَ الشّمس، والضوء المُذهّب الخارج من المصابيحِ المضاءةِ توًّا، وساعاتِ النّومِ، وفكرةَ الذهابِ لمقابلةِ عشيقي قد صبّت كلّها في مصلحتي، فقد أضفتْ لونًا على خدّيّ وجعلتْ عينيّ تلتمعان. عدّلتُ قامتي جيّدًا وأخرجتُ سيجارةً. ونفشَ هو أيضًا ريشه، ووضعَ يديه في جيبيْه واعترض طريقي متظاهرًا بأنّ ذلك لم يكن مقصودًا. فكّرتُ للمرّةِ الأولى بشيءٍ من اللامبالاةِ الممزوجةِ بالتوجّس أنّه قد يكون أصغرَ منّي سنًّا. لكنّني لم أنظر يومًا لشبابي بوصفه سلاحَ إغواء -وفي الوقتِ ذاته لم يخطرْ لي أبدًا أنّه سينتهي يومًا- وها إنّي الآنَ، أراقبُ بلا حماسٍ، ولا يأسٍ أيضا، بدايةَ تدهوري الجسديّ، الذي قد يتبعه تدهورٌ عقليّ.

- بخير.

- هل تشربين شيئًا معنا؟

- يسرّني ذلك، لكنّني على عجلةٍ من أمري.

- نعم! فالكثير من الرجالِ يحيطون بك. -فكّرتُ في سانتي الذي كان ينتظرني بالتأكيد، وقد بتُّ، منذ لقائنا الأخير، أقلّ رغبةً في رؤيته من ذي قبْل، وفكّرتُ في الرجال الآخرين الذين هم بالنسبةِ إليّ مثلَ الرّقعة تخُفي تحتها رغبةً مكتومةً وعميقةً في محاولة بناءِ شيء مّا، شيء سيؤول إلى أنقاضٍ في نهايةِ المطاف. ومع ذلك فإنّني في كلّ مرّة أزدادُ وعيًا بطابعِ الوحدةِ المَرضيّ

وبالسهولةِ التي يمكنُ الانزلاقُ بها، في ساعاتٍ معيّنةٍ، إلى منحدرِ اليأس الأملسِ الزّلق. حسنًا. في يوم آخر ربّما. قالَ وقد تنحّى قليلًا. ثمّ قبّلني فشعرتُ بخدّه الأشقرِ الخشنِ -الدّافئ الواعدِ بشيءٍ مّا- على خدّي.

- كلاّ كلاّ، في الواقع عندي قليلٌ من الوقت. -قلتُ وأنا أنظرُ إلى السّاعةِ في معصمي متظاهرةً بأنّني أحسبُ الوقت-. صحيح.. ما اسمكَ؟

- مارتي.

- تشرّفت، وأنا بلانكا. وبسطتُ له يدي في حركةٍ آليّة، عبثيّةٍ بعضَ الشيء ورسميّةٍ، فقد صرتُ أعرفُ من طريقةِ نظرهِ في العينيْنِ ومن لمسةِ خدّه بأنّه سيشدُّ عليها بقوّةٍ وبأنّ راحته ستكونُ حارّة مُتيبّسة.

ثمّ انضممنا إلى مجموعةِ أصدقائه، شابٌّ وفتاتيْن، عانقوني بودٍّ، وبالفضول الماكر الساخر والبشوش الذي يُعرف به سكّانُ إمبوردا. كانتْ المرأتانِ العَزَبَتانِ، غير المقيّدتيْن برباطٍ يُعدُّ بالأعوامِ والأولادِ، فإمّا أنْ يُغلِقَ الأفواهَ تمامًا أو يُطلقَ الألسنةَ، تتحدّثانِ عن الرّجال -لم أسمع مطلقًا من يتحدّثُ بفظاظةٍ وقسوةٍ عن الرّجال أكثر من النساء السّعيداتِ في زواجهنّ-. وكانا يسمعانهما متهكّميْن ساخريْن، ولكن دون أنْ يجيبا بأيٍّ من الجملِ النّمطيّة المستفزّةِ، المُختلَقةِ في معظمها والمملّةِ، من تلكَ التي ينسبها إلينا الرّجالُ أو ننسبها إلى أنفسنا.

- وماذا عنكِ، ما الذي تبحثينَ عنه في الرّجل؟ سألتني الفتاةُ التي

لم أقابلها من قبل، فجأةً. شابّةٌ بشعر طويل كستنائيٍّ وعينيْن داكنتينِ ونظرة توّاقة، بالتلقائيّةِ التي يحدث بها، على الفورِ عادةً، هذا النّوع من الأحاديث بين النساء.

بقيتُ شاردةً قليلًا، دون أنْ أعرفَ هل أجيبُ مازحةً أم بجديّة، وأنا أعي عذوبة حضور مارتي الطّاغي والحسّاس، جالسًا إلى جانبي بقامتهِ الأطولِ كثيرًا من قامتي.

- من ناحيتي يُعجبني من الرّجال من يمنحني الرّغبةَ في أنْ أكون أكثر فطنةً ممّا أنا عليه -وأردفتُ بصوتٍ خفيض قائلةً-: فُهم عادةً يمنحونني رغبةً في أنْ أكون أكثر حماقةً.

- أووف يا بنت! قالتْ الفتاةُ ضاحكةً، إنّك تطلبينَ الكثير.

استمرّ نقاشٌ طويلٌ، لم نشتركْ فيه أنا ومارتي إلاّ قليلًا، حولَ ما يبحثُ عنه الرّجالُ والنساءُ في الجنسِ الآخر. وبصورة طبيعيّة، وبلا سعي واعٍ منْ جهة أيٍّ منّا نحنُ الاثنين، انفصلنا عن المجموعة. وانتبهتُ إلى أنّني كنتُ متوتّرةً، لم أكنْ حتّى تلك اللحظةِ قادرةً على نطق اسمه، والكأسُ التي كانتْ، منذُ لحظات وأنا محاطةٌ بالناسِ والضحكات، مشدودةً بينَ أصابعي بقوّةٍ، ها هي الآن ترتعشُ قليلًا، ثمّ إنّ انتظارَ سانتي الشاقَّ والعبثيَّ لي في الفندق، قد مرّ ببالي فجأةً، وعلى نحوٍ مؤلمٍ، كعذرٍ قويٍّ للمغادرة.

- عليّ الانصرافُ الآن. فقد تأخّر الوقت. -وكوسيلةٍ لإرجاء اللّحظةِ التي يقول فيها وداعًا فيكونُ عليّ بالفعلِ عندها أنْ أغادر حقًّا أردفتُ قائلةً-: متى عيدُ ميلادكَ؟

نظرَ إليّ حائرًا.

- لا تقولي لي إنّكِ تؤمنينَ بالأبراج؟

- كلاّ، ليس كثيرًا، أردتُ أنْ أعرفه وحسب، كي أهديكَ نعليْنِ جديديْن من الخيش.

نظرَ إلى الأسفلِ وحرّكَ إصبع قدمِه الكبيرِ الذي يخرجُ من ثُقبِ الحذاء.

- لكنّه مثاليّ. -قال، وقد بدا عليه بعضُ الخجل-. إنّه منعشٌ جدًّا.

- لنرَ. لنجرّبهُ إذن.

هكذا فجأة، عدتُ لأوجدَ في ساحةِ اللّعب التي أشعرُ فيها بأمان وبارتياح كبيرٍ، وأجدها أقلَّ تفاهةً بكثيرٍ ممّا يظنّ بعضُ الناس؛ إنّ كثيرًا من اليقينيّاتِ المهمّةِ في حياتي اكتسبتها بينما كنت ألعب. وبشيءٍ من التردّدِ خلعَ نعلًا وقرّبه أمامي، دسستُ قدمي في فردةِ الحذاء الضّخمة تلك، والتي كادت تكونُ بحجمِ قاربِ نجاةٍ صغير، وشعرتُ بأرضيّته الجافّةِ الخشنةِ المصنوعة من الحلفاء ومن الخيشِ الملوّنِ بالأسود، لكنّه هشٌّ وحائلٌ وبهِ عروقٌ بيضاءُ خُطّت عليه بفعل ملح البحر الذي شوّكَ مِشطَ قدمي قليلًا.

- إنّها تناسبني تمامًا. -قلت، وأنا أنظرُ إلى ظفر أصبعي الكبرى، النافرِة جدًّا مثلَ أنفِ مُهرّجٍ وسطَ ملامحَ بيضاءَ تمامًا-. أعتقدُ أنّني سأحتفظ بها لي.

- هكذا تنتهي قصّة سندريلاّ. أليسَ كذلك؟ بالعثورِ على فردةِ الحذاء التي على مقاسها. قال مارتي وهو يتأمّلني بابتسامةٍ هادئة.

- صحيح! لم يخطر هذا الأمر ببالي! -أخرجتُ برفقٍ قدمي من نعلِ الخيشِ وأعدتهُ إليه-. عليّ أنْ أذهب. إلى اللّقاء مارتي. وقبّلتهُ من طرفِ فمه وخرجتُ مسرعةً، قبلَ أنْ يتحوّل ثوبُ الأميرةِ الذي أرتديه إلى أسمالٍ وأتحوّل أنا إلى بلهاء.

لم أدخلْ يومًا فندقًا في كاداكس، صحيحٌ أنّ الإطلالةَ من الشّرفةِ كانتْ مألوفةً لي. لكنْ ها أنا أعودُ مُجدّدًا إلى تلك الأرضِ المُربكةِ الغريبةِ، أرضِ الفنادِق التي نقصدها بلا نيّةٍ للمبيت بها، ونشعرُ فيها بالوحدة وإنْ كنّا بصحبةِ أحدهم، مثلَ جنديٍّ متأهّبٍ للقتالِ على الدّوام، ونحصلُ فيها على استراحةِ المحاربِ، القصيرةِ والعميقةِ والعابرة.

- تأخرّتُ عنك. آسفة. أعتذرُ حقًّا.

- لا عليكِ، لكنّ وقتي أوشكَ على النفاد.

رأيتُ عبرَ النافذةِ أنّ العتمةَ قد أطبقت بالكامل، كانَ الليلُ على وشكِ الانتصاف. ابتسمَ لي سانتي بوجهه الحزين وعينيْه اللاّمعتيْنِ كعيني طفل مشرّد ومُدمن. لم يكنْ غاضبًا. فهو لا يغضبُ منّي مهما فعلتُ ومهما صدرَ عنّي. أعتقدُ أنّه يعدُّ قسوة أفعالي وعباراتي ضريبةً عادلةً لعلاقتنا غيرِ المتكافئة، لكنّه لا يُدركُ أنّ ما لا يُعطى لا يمكنُ فقدانه، وأنّنا إنْ افترقنا، سأكون أقلّنا خسارةً نحنُ الاثنيْنِ.

أخذ ينزعُ عنّي ملابسي قطعة قطعة، وبشيءٍ من الارتباكِ المتثاقلِ المزوجِ بالإعجاب. كانتْ عيناهُ محمرّتيْن ولسانُه أشبهَ بالورقةِ

الجافّة، يبدو أنّه دخّنَ الحشيش حينَ كان ينتظرني. تركتُ نفسي للأمر مترقبةً، بحساسيّةٍ وتيقّظٍ، تلك اللّحظةَ التي أفقدُ فيها توازني وتسري فيها حرارةُ أحشائي كالانفجارِ في أنحاءِ جسدي كلّها. بلغ ذروة اللذّةِ في دقيقةٍ ونصف، بعذوبةٍ ووداعةٍ، مثلَ رضيعٍ، غيرَ قادرٍ على أخذي معه إلى الضّفّة الأخرى، وأمضى الدقائق العشرَ الأخرى -التي كانَ يُمكنُه أنْ يستغلّها، نظرًا لضيقِ الوقتِ، في شيء أكثر جدوى- وهو يعتذر لي.

- آسفٌ. أنا متعبٌ للغاية.

- لا تقلق. كذبتُ، وكان مزاجي سيّئًا بعضَ الشيء، فيما أخذ جسدي الحانقُ يفقدُ حرارته وجفّتْ شفتاي وظلّت رغبتي تحومُ في الغرفة، بلا غايةٍ واضحةٍ، مثل غيمةٍ صغيرةٍ مِلحاحةٍ وكسولة.

نهضَ فرأيتُ فجأةً صورته منعكسةً في مرآةِ الخزانة. لم أكدْ أعرفه، وقد لاحظتُ للمرّةِ الأولى أنّ رأسه صغيرُ الحجمِ وأنّ الصّلعَ قد بدأ يجتاحه.

- ألا تلاحظُ أنّك تستخدمُ كلمةَ للغايةِ بإفراط؟ قلتُ وأنا أشحذ كلماتي على مهلٍ.

- في السابقِ كان ذلك يعجبكِ، ويجعلك تموتين من الضحك.

- لو سمعتك أميّ، لتقلّبتْ في تربتها.

ابتسمَ لي بعذوبةٍ كاشفًا عن أسنانه الملوّثةِ بالنيكوتين. نظرتُ إليه

باهتمام ورأيت كيف أنّ قِناعهُ -البشرةَ الملوّحة بالشّمس، واللحيةَ ذات الأربعةِ أيّامٍ، وكأسَ المارتيني، ويديْه الشبيهتين بيدي ذئبٍ شرسٍ، والسّوارَ القديمَ ذكرى إحدى الحفلات الموسيقيّة- قد بدأ يتفكّكُ ويزولُ رويدًا رويدًا. ليسَ لأنّ الرّجلَ الواقفَ أمامي دميمٌ، على العكس، لكنّه ليسَ ذلك الرّجلَ الذي أحببته، ولم يعدْ كُلاً واحدًا، بل مجموعةً من الميزاتِ والعيوبِ، رجلًا كغيرِهِ من الرّجالِ الآخرين. رجلًا لم يعدْ يحميه حبّي له ولا يبتكره، رجلًا في العراء.

- يا للأسف! عليّ أنْ أذهب. قال لي بعيْنيه الشبيهتيْن بعيني يتيمٍ فيما سحابةٌ غيرُ مرئيّة تحطُّ فوقَ رأسه المتهوّرِ آخذةً في الامتلاء بالمطر.

- أنتَ تعرفُ ما سيحدث. أليس كذلك؟ سألته.

- ماذا؟

- ستهجركَ زوجتكُ، ستحبُّ رجلًا آخرَ مجدّدًا.

- لنْ يكون سهلًا عليها العثور على رجلٍ آخر. هي ليست مثلَك.

فكّرتُ بشيءٍ من الحزنِ في تلكَ السيّدة المتعجرفةِ ذاتِ الثّوب الأزرقِ الفيروزيّ التي رأيتها عند دكّانِ الجزارة، وكيفَ أنّنا نجرؤُ على قولِ مثلِ هذه الأشياء المُدمّرةِ البائسةِ بحقِّ أكثرِ البشرِ قربًا إلى قلوبنا.

- وعندها لنْ أحبّكَ أبدًا.

بقيَ شاردًا، وبدا منشغلًا بفكرةِ أنّ زوجته قد تعثرُ على رجلٍ

آخر -وهو الأمر الذي يبدو أنّه لم يخطر بباله من قبل، كما لو أنّ ما سبقَ وقوعه كان ضربًا من كارثةٍ طبيعيّةٍ غريبةٍ عليهما ولن تتكرّر ثانيةً- أكثرَ من انشغاله بأنّني سأكفّ ذاتَ يومٍ عن الشّعور بالرغبةِ في الارتماء بينَ ذراعيه. ارتدى ملابسه بصمت.

- منذُ مدّةٍ لم أضاجع زوجتي. ألقى بتلك الهديّة الفاسدة أمامي، مثل كلبٍ يظهرُ بعدَ حملةِ استكشافٍ في الغابةِ ومعه جثّةٌ متحلّلةٌ لحيوانٍ قارضٍ ويقدّمها لسيّده على أنّها غنيمة.

- وإنْ كان، هذا لا يعنيني. -قلتُ بشيءٍ من النّفور. حتى ذلك اليوم لم يكن قد لمّحَ بأيّ شيءٍ أمامي عن علاقته الحميمةِ بزوجته. وأردفت قائلةً-: أعتقدُ أنّ علينا ألاّ نتقابلَ بعد الآن.

- اللّعنة، اللّعنة، اللّعنة. -قال وقد وضعَ رأسه بين يديه كأنّه ممثّلٌ من الدّرجةِ الثالثةِ يحاولُ أنْ يأتيَ بتعبيرِ الذّعر-. أعرفُ أنّ ما أقدّمه لكِ يسيرٌ جدًّا، لكنّني لا أستطيع التوقّفَ عن رؤيتك. -وأردفَ بصوتٍ خفيضٍ، كأنّه يخجلُ مما سيبوح به، أو أنّ فيه شيئا من الكذب-: أحبّكِ جدًّا.

- تلك هي المشكلةُ، -فكّرتُ، وقد أدهشني انتباهه لشروعي في التحدّث بصيغة الماضي-. أنّه عوَض أنْ تحبّني، فقد أحببتني جدًّا. لكنّني لم أقلْ شيئًا من هذا لأنّ الأوانَ كان قد فات كثيرًا، فلا يوجد حوارٌ في العالم أكثر إثارة للشفقةِ وخضوعا للفشلِ من ذلك الذي يدور بيْنَ فرديْنِ يحاولان مُقايسةَ حبّهما.

في تلكَ اللّحظة، رنّ هاتفه؛ وكان المتّصلُ زوجتُه العائدةَ توًّا من

حفلةٍ موسيقيّةٍ في قريةٍ مجاورة. نظرَ نظرةً خاطفةً إلى ساعته الثّمينةِ جدًّا، والتي أهداها إليه حموُه فصار يحملُها على ساعده كأنّها خاتم خطوبةٍ، ثمّ نظر إليّ بعينيْه اللاّمعتيْنِ.

- عليّ أنْ أذهب.

- حسنًا، وأنا كذلك.

- سنلتقي قريبًا، أليس كذلك؟ ومرّر شفتيهِ، بشغفٍ وعلى مهلٍ، فوق شفتيّ الخاملتيْنِ حينها.

ولّما ابتعدَ رأيتُ أنّ ساقيه كانتا معوجّتيْن.

جلستُ أدخّنُ في ساحةِ القرية. وتابعتْ الفرقةُ عزفها وحلَّ جوّابو الليل محلّ الجمهورِ المألوف وكانوا أكثرَ عددًا وأشدَّ شغفًا بالرّقص.

لم يخطر ببالي يومًا، إلى حينِ مرضكِ ووفاتكِ، أنْ أجلسَ على مقعدٍ في الشّارع. كنتُ لا أوجد في الشارعِ إلاّ عابرةً لمكانٍ مّا أو لكيْ أتمشّى. وها أنا الآن أستمتعُ بسكوني وسطَ النّاس، جالسةً في أحدِ المقاعدِ، قواربِ النّجاةِ الصغيرةِ العامّةِ تلك. إنّ العالمَ ينقسمُ إلى أولئك الذينَ يجلسونَ على مقاعدِ الشارعِ وأولئك الذين لا يجلسون عليها. أعتقدُ أنّني انضممتُ هكذا إلى مجموعةِ كبار السّن والمهاجرينَ والعاطلين، أولئك الذين لا يعرفون أينَ يذهبون. وفجأةً، لمحتُ وسطَ الحشدِ شخصًا طويلَ القامةِ سيّئ الهندام، ومألوفًا لي على نحوٍ غامض، يحرّكُ يديه النحيلتيْن الطويلتيْنِ جدًّا، ولم أعرف إنْ كانَ يرقصُ أمْ يحيّيني.

- بلانكا! يا غاليتي!

قبّلني من شفتي كما قبّلني أوّلَ مرّةٍ منذُ ألفِ عام، بعدَ خمس دقائق من تعارفنا وسط مائدةٍ مليئةٍ بالناس. وفكّرتُ على نحوٍ عابر بإليسا، وبوجهها الصغيرِ كوجه فأرةٍ حكيمة، متسلّحةً بكلّ النظريّات الفرويديّةِ كي تواجه العالمَ وتُدجّنه، ليتها كانتْ هنا، لكنتُ شرحتُ لها كلّ شيءٍ وأخذنا نضحك، ولقالت بلا شكٍّ إنّ الحقَّ كلُّه عليكِ.

- ناتشو!

- ماذا تفعلينَ وحدكِ هنا؟

- حسنًا، لا أعلم، كلّ الناسِ تخلّوا عنّي مؤخرًّا، زوجي السّابق وأعزُّ صديقاتي وعشيقي.

- تعاليْ. قال، ممُسكًا بيدي، سأصطحبك إلى حفلة.

نظرتُ إليه بطرْفِ عيني ونحنُ نركضُ في شوارعِ القرية. لقد تحوّلَ ملكُ العالمِ ومُدمنُ المخدّراتِ الرّياضيّ وزيرُ النساء الممْعنُ في غيّه ذاك، إلى متسوّلٍ يعلقُ الرمادُ والغبارُ بثيابه. كنا نعرفُ واحدنا الآخر منذ الصغر لكنّنا لم نصبح صديقيْن إلاّ بعد أنْ تجاوز كلانا العشرينَ من العمر، حيثُ لم يعُدْ فارقُ العمر (فهو يكبرني بتسعِ سنواتٍ) ظاهرًا، وفقد قيمته فلم أعدْ أنا بنتًا صغيرةً بالنسبةِ إليه، وإنْ بقي يناديني هكذا دومًا، ولم يعدْ هو كبيرًا بالنسبةِ إليّ. كانَ به ذاك الخليط الرّائعُ من النّورِ والعتمة الذي يتميّزُ به الرّجالُ الرومانسيّون الملعونون، ذلك الوميضُ الكهربائيّ الذي يجعلُ الآخرين يقتربون

منهم مثلما يقترب الفَراش من اللّهب: عينا أيلٍ وحياةٌ ماجنةٌ تمامًا، من مخدّراتٍ وبطالةٍ وفوضى وغيابٍ عن الوعي. وجمالٌ جسديٌّ ملحوظٌ للغايةِ لم تقاومهُ النساءُ على مدى سنواتٍ، ولا أنا كذلك. كثيرةٌ هي الصباحاتُ التي استيقظنا فيها فإذا بنا معًا، متكوّريْنِ على شاطئٍ أو مُنزوِييْنِ في مدخلِ بنايةٍ مّا. وعلى الرّغم من الودّ الذي كانَ بيْننا، لم نسعَ يومًا إلى اللّقاء في برشلونة حيثُ يعيشُ كلٌّ منّا. ولم نتبادلْ يومًا أرقامَ هاتفيْنا. كانَ ناتشو يشكّل جزءًا من حياتيَ الصيفيّة فحسب، مثل النزهاتِ في القارب وأوقاتِ القيلولةِ في أرجوحة النّوم والخبزِ الطازجِ الذي كنّا نشتريه صباحًا من الفرن مباشرةً حيثُ يعجنهُ رجالٌ مشمّرون عن سواعدهم ومتعبون، وينظرون إلينا بعيونٍ حزينةٍ، وكنّا نلتهمه قبلَ أنْ نذهبَ إلى البيتِ لننام. ولم يخطرْ لي قطّ، إمكانيّة وجوده في مكانٍ غير كاداكس. وقد تحوّلَ الكوكايين، في نهايةِ الأمر، إلى حبيبته الوحيدة، وبدّل أساريره فحوّلَ ابتسامته الخلاّبةَ إلى تكشيرةٍ متُشنجةٍ وسلبهُ نظرةَ الجروِ وأعطاه بدلًا منها عيْنينِ ماكريتْنِ، جائعتيْنِ ومعتمتيْنِ. أمّا جسده شديدُ اللّيونةِ والأناقةِ فقد صارَ الآن أكثر من هيكلٍ عظميٍّ بقليل. هذا ما خطرَ لي ونحنُ نصعدُ تلال القريةِ بشوارعها المبلّطة. كان ثقيلَ الحركةِ وأحسستُ أنّ كلّ خطوةٍ يخطوها كانت تؤلمه، كما لو أنّه أجوف. أعتقدُ أنّ كلّ جسدٍ يروي بنفسهِ قصّة شهوانيّته ورعبِه وخذلانه.

وصلنا إلى بيْتٍ كبيرٍ بقاعاتٍ بيضاء، وأرائكَ جلديّةٍ قديمةٍ وُضعَ عليها الكثير من الوسائد، وسجّادات شرقيّة تغطي أرضيّةً حمراءَ من الغرانيت. ثمّةَ شموعٌ في كلّ ركنٍ، كانَ بعضها قد ذابَ

عن آخره. وكانتْ النوافذُ الكبيرةُ المطلّة على القريةِ وعلى البحر، مفتوحةً على مصراعيْها، والسّتائرُ الباليةُ الباهتةُ ترفرفُ مثلَ أوشحةٍ جذّابة. كان ثمّة كثير من الناس والموسيقى والمخدّراتِ المبعثرةِ على الطاولتيْنِ المنخفضتيْنِ، والكحولِ وبقايا فاكهة ذابلة في صحونٍ كبيرةٍ ملوّنة. عرفتُ من بين الموجودينَ بعضًا من سكّانِ القريةِ، أبناء المستوطنين الأوائلِ المثقّفينَ والفنّانين الذين وصلوا إلى كاداكس في الستينات فعمروها بأناسٍ جذّابين موهوبين، توّاقينَ إلى تغيير العالم وإلى التمتّع بالحياةِ على وجه الخصوص. عرفتُ على الفورِ أبناء ذلك الجيلِ، أولئك المتوحشين الذين تربّوا، مثلي، على أيدي آباء نيّرين وأذكياء، ناجحين ومشغولين دومًا، أفرادًا راشدين يسعون جاهدينَ إلى أنْ يصبحَ العالمُ عيدًا، عيدَهم الخاصّ. أعتقدُ أنّنا آخرُ من كانَ عليهم أنْ يكِدّوا لكيْ ينالوا اهتمامَ آبائهم أو انتباههم، من بين كلّ الأجيال. ونحظى به، في كثيرٍ من الأحيان، متأخّرًا جدًّا وبعدَ فواتِ الأوان. لم يكنْ آباءُ تلك الحقبةِ يعتبرون الأبناءَ معجزةً، بل عائقًا، أو كائنات غير مكتملة. فتحوّلنا إلى جيلٍ ضائعٍ مفطورٍ على الإغواء. وكان عليْنا أنْ نخترعَ أساليب أعقدَ بكثيرٍ من مجرّدِ شدِّ الأكمامِ توسّلًا أو الانفجارِ في البكاءِ كي نجعلهم يلتفتون إلينا. كان مطلوبًا منّا أنْ نكون، دومًا، على توافقٍ مع الكبار، أو، على أقلّ تقديرٍ، ألاّ نُزعجهم أو نقاطعهم أثناءَ الحديث. حينَ أطلعْتكِ، أوّل مرّة، على أولى كتاباتي وكانتْ قد فازتْ بجائزةٍ مدرسيّةٍ -وكنتُ في الثامنة من عمري على الأرجح-، قلتِ لِي ألاّ أطلعكِ على أيّ شيء آخرَ إلاّ حينَ يصلُ مجموعُ ما أكتبه ألف صفحة، وأنّ ما هو أقلّ من

هذا سيكون محاولةً غيرَ جادّةٍ. كانتْ العلاماتُ الجيّدةُ تُستقبلُ على أنّها أمرٌ بديهيّ، فيما تُقابلُ السيّئةُ بعدم الرّضا، ولكن دون احتجاجٍ صارخٍ ولا عقوبات. أمّا الآن، فجدرانُ بيتي مغطاةٌ برسوماتِ ابني الصغير وأصغي إلى الابن الأكبر يعزفُ البيانو باحترامٍ وتقديرٍ كبيرينْ كما لو كانَ باخ مبعوثًا من جديد. وأتساءلُ، أحيانًا، ما الذي سيحدثُ حينَ يكبرُ هذا الجيلُ الجديدُ من الأولاد الذين تنظرُ أمّهاتهم إلى الأمومةِ على أنّها دِينٌ -نساء يرضعنَ أولادهنّ إلى أنْ يبلغوا الخامسةَ من العمرِ ثمّ يستبدلن حليبَ الثدي بالمعكرونة-، همّهنّ الأطفالُ، وشاغلهنّ الوحيدُ وسببُ وجودهنّ. يعلّمنَ أبناءهنّ كأنّهنّ يُعددنهم لحكم إمبراطوريّة، ويغرِقنَ شبكاتِ التواصلِ الاجتماعيّ بصورِ صغارهنّ، ولا يكتفين في ذلك بأعيادِ ميلادهم أو رحلاتهم، بل حتى وهم في المرحاضِ أو جالسينَ على المبولة (ما من حبٍّ أقلّ حياءً من الحبّ الأموميّ المعاصر) ما الذي سيحدثُ حينَ يكبرون ويتحوّلونَ إلى بشرٍ شديدي العجز، ومتناقضينَ جدًّا وتعساءَ مثلنا أو ربّما أشدّ تعاسةً، ولا أعتقدُ أنّ أحدًا يُمكنُ أنْ يخرجُ مُعافى بعدَ أنْ تُلتقطَ له صورةٌ وهو يتغوّط.

جلسنا على أريكةٍ مع زوجٍ من أصدقاء ناتشو. فقدّموا لنا الكوكايين على الفور، قبِلَ ناتشو بحماسٍ وبدأ يتقافزُ حولنا ويمثّلُ بأنّه يعزف على الغيتار على إيقاعِ الموسيقى التي كانت تصدحُ من مكبّراتِ الصّوت، مباعدًا ما بيْنَ ساقيه ليوحيَ بأنّه يضربُ على أوتار الآلة. أصرّت الفتاةُ على أنْ أشاركهم في شمّ الكوكايين، لكنّني رفضتُ العرض.

- لا، شكرًا، أنا متعبة. وإنْ بتّ في حالةٍ سيئةٍ، سيحتجُّ عليّ ولداي غدًا.

- آه. -قالت، وهي تنظرُ إليّ ذاهلةً-. لديْك أولاد. إذنْ فنفسٌ واحدٌ سوفَ ينعشكِ، ويزيلُ تعبكِ.

كانت شقراء وجميلةً، نحيلةً وبشرتها مسمرّةٌ بفعل الشمس، ترتدي بنطالًا هنديًا شفّافًا من دونِ ملابسَ داخليّة وتي-شيرتا قديمًا بلونٍ ورديٍّ حائل.

- كلاّ. هكذا أفضلُ لي، حقًّا.

- أنتِ غبيةٌ أم ماذا؟ -صاحَ بها صاحبها-. ألم تسمعي أنّها قالت لك لا تريد؟ دعيها وشأنها.

وأخذا يتجادلانِ ويصرخان، ولكنّ صوت الموسيقى غطّى، لحسنِ الحظّ، على صوتيهما ورأيْتهما يحرّكانِ أيديهما مُهتاجيْن، فحسب. كان ناتشو يروحُ ويجيء راقصًا، وبعدَ كأسينِ من الجنّ تجاوبتُ معه أخيرًا فتبعتهُ ورقصنا كما كنّا نرقصُ حينَ كنّا صغيريْن نعتقدُ أنّ الحياةَ ستفي بكلّ وعودها لنا وألاّ داعيَ للقلق لأنّ كلّ شيء في النهايةِ سيكون على ما يرام. وبعد أنْ انتهيْنا، ارتمينا معًا على إحدى الأرائك. وعندها دنتْ منّي الفتاةُ الطيبة الجميلة والشقراء، مسرعةً.

- كنتُ أبحثُ عنْكِ! انظري، انظري. -قالت وهي تُريني صورةً على هاتفها-. هذه بويضاتي المُجمّدة.

- آه! -نظرتُ إلى الصورةِ الغامضةِ؛ خلفيّةٌ رماديّةٌ فيها بقع

بيضاويّة بلونٍ رماديٍّ أشدّ دُكنةً، ولم أعرف ماذا أقول، فيما هي تنتظرني بعيْنيْنِ مُترقّبتيْن-. جميلة جدًّا. قلتُ أخيرًا.

- أحقًّا؟ -سألت مُتعجّبةً-. هذه في حالِ قرّرتُ ذاتَ يومٍ إنجابَ أطفالٍ. -وأردفتْ قائلةً-: حينَ أكونُ مستعدّةً لذلك.

- جميل! سعيدةٌ لأجلك. قلت.

- فقطْ أردتُ أنْ أريكِ إيّاها. لعينيْها لونٌ أزرقُ شفّافٌ وصافٍ جعلَ قلبي ينقبض، كما لو أنّني استطعتُ أنْ أطلّ على عالمها الدّاخليّ وأراه من خلالِ جسدها؛ أنهارُ الدّمِ الصغيرة، والقلبُ الهيّابُ والشجاعُ في آنٍ.

وحين ذهبتْ، قالي لي ناتشو:

- هذه لا خلاصَ لها أبدًا، قد ينجو هو، أمّا هي فقد غرقتْ تمامًا. وكانتْ فكرةُ تجميدِ البويضاتِ فكرةَ والدها، وهو طبيبٌ مدريديٌّ مرموق.

أزاحَ شعري قليلًا وبدأ يقبّل عنقي، مثلَ عصفورٍ، بنقراتٍ صغيرةٍ.

- ونحن؟ ماذا عنّا؟ -سأل-. هل سننامُ معًا كما في الأيّام الخوالي؟

فأخذتُ أضحك.

- لكمْ شِخنا! أليس كذلك؟ تخيّل ما سوف يحدثُ بعد عشرين عامًا. الآن بدأنا مرحلةَ الشيخوخة، ولكن ما نحن فيه اليومَ مجرّدُ مزحة، شبح بعيد.

- هذا يعني أنّنا لن ننامَ معًا؟

وعضّ عُنقي برقّة.

- أعتقد أنّ ما أحتاجه الآن هو الصّديق.

- وأنا بالطبعِ عديمُ الجدوى كصديق! تعرفين ذلك.

وأخذنا نضحكُ كلانا.

- وأنا كذلك، لستُ مبدعةً في هذا المجال. ولكنْ بوسعنا البقاء معًا هكذا للحظةٍ أخرى.

شعرتُ بالتّعبِ المُربكِ والوجعِ المتراكم في أيّامِ النقاهةِ التي أمضيتها طريحةَ الفراش، وبالحزنِ الغامض الملحاحِ الذي رافقني منذ وفاتك، وأحاول أن أنفُضه عنّي لكنّ ذرّاته تعودُ لتستقرّ تمامًا في موضعها الأوّل.

عانقني ناتشو بقوّة، مثلَ طفلٍ صغيرٍ يعانقُ لعبته، لكنّني شعرتُ بجسدهِ مشدودًا متوتّرًا. أعرفُ أنّه لن يذهبَ إلى النّوم ما دامت في البيْتِ ذرّةٌ واحدةٌ من السمّ.

- عليّ أنْ أذهب. فقد تأخّر الوقتُ كثيرًا. قلتُ له مُحرّرةً إيّاه منّي.

رافقني حتّى مدخلِ البيت، ثمّ أمسكَ وجهي بين يديه وقبّلني كما كان يفعلُ قبل ألف عامٍ، حينَ كنّا غيرَنا. وارتسمَ طيفهُ الدّون- كيخوتيّ على الباب.

- خذي حذركِ أيّتها الصغيرة! فالجوُّ باردٌ في الخارج.

بَرُدَ الجوُّ، وبدأ ضبابٌ خفيفٌ رماديٌّ وحليبيّ -سيصطبغُ بعد لحظةٍ بالورديّ والبرتقاليّ- يطمسُ ملامحَ الأشياء. لم يبقَ وقتٌ طويلٌ على طلوعِ الفجر. يبدو أنّني أمضيتُ ثلاث ساعاتٍ أو أربعًا في الحفلة. رافقتني موسيقى البيت طويلًا ثمّ تلاشتْ ولم يبقَ سوى وقع خطواتي فوق البلاط الرّماديّ وصراخ الطيور المُسرنمةِ. ولم أرغب بعدُ في الذهابَ إلى النّومِ. رأيتُ أنْ أهبطَ صوبَ الشّاطئ، وستكونُ المرّة الأولى التي أشاهدُ فيها طلوعَ الفجرِ عليه وحيدةً، عِلمًا بأنّ شروق الشمس، مثل كثيرٍ من الأشياء الأخرى، لا يتبدّى جلالهُ وانعتاقه إلاّ للرّفقةِ الصامتةِ. ولكن بدلًا من التوجّه نحو البحر، بدأتُ أصعدُ الجبل، ودخلتُ الأزقّة الصّخريّة الضيّقة كالدهاليز، التي تحدّها من الجانبيْنِ جدرانٌ قصيرةٌ من أحجارٍ متراصّةٍ قديمةٍ لا تنهارُ أبدًا، أحجيةٌ من قطعٍ مركّبةٍ بديعة، تسيّجُ حقولَ زيتون وبساتينَ، وتغفو عليها القططُ خلال النهار أو تمكثُ مُراقبة. تركَ أحدهم فردةَ حذاء طفلٍ فوق أحد الأسوارِ الترابيّة. بعدَ لحظاتٍ سيستيقظ ولداي، ذلكَ هو مشهدي المميّز من بقايا النّعاس عند الفجر: إدغار، صامتًا متأمّلًا، يجرجرُ معه لبعضِ الوقتِ، مِثلي، آثار الليلةِ الفائتةِ، ونيكولاس، مندفعًا بعزيمةٍ صوب اليوم الجديد ثرثارًا وبشوشًا. كانتْ ساقايَ تُثقلانِ عليّ كما في بعضِ الكوابيس لكنّني لا أتوقّف؛ أستنشقُ هواءَ اليومِ الذي بدأ الآن نقيًّا مُنعشًا، وأقولُ لنفسي إنّني سأتركُ التدخينَ غدًا. واصلتُ ببطءٍ صعودَ التلّة وصولًا إلى فسحةٍ من الأرضِ بها شجرتانِ هزيلتان، وهي محطّ المخيّمينَ صيفًا. كنت آتي إليها كثيرًا في صغري. أتذكّرُ

صديقًا إيطاليًّا أعدّ لي السباغيتّي مع صلصة الطّماطم هنا على موقدٍ في الهواء الطلق.

وقد نسيت اسمه، واسمَ غالبيّةِ شخصيّاتِ تلكَ الأصيافِ اللّطيفةِ المرحة، التي كنّا فيها، مثلَ كلّ الشباب، نحلّقُ بنشوةٍ مزهوّين خليِّي البالِ فوق القريةِ وفوقَ العالم. كانَ يعبر المخيّم رجلٌ عجوزٌ حاملًا دلوًا في يده، وحيّاني حانيًا رأسه قبل أن يختفيَ في جناحٍ صغيرٍ مخصّصٍ للاستحمام. لا بدّ أنّ مظهري كانَ يُرثى له؛ لو كانَ بارُ المخيّمِ مفتوحًا لذهبتُ لاحتساءِ القهوةِ وغسلِ وجهي، لكنّ الوقتَ كانَ ما يزالُ باكرًا، والمبنى الرّماديّ مغلق ومعتم. فتابعتُ السير حتّى لمحتُ جدرانَ الصّومعةِ البيضاء وقد بدأت تتجلّى مع ضوء الفجر، وشجرتيْ السّرو الضاربتيْنِ إلى السّواد المحاذيتيْنِ لمدخلِ المقبرة مثل حارسيْنِ مخلصيْنِ رحيميْنِ. وصلتُ، وهنا ينتهي طريقُ الطّوبِ الأصفر. كانَ قلبي يخفقُ بشدّة رغم التّعب، ويدايَ متجمّدتيْن، وقد بدأتُ أرتعش. آخر مرّة جئتُ فيها إلى هنا كنتُ وسطَ حشدٍ من الناس، كنّا نحنُ الأحياءَ نفوق الموتى عددًا، كنّا أغلبيّةً، وكان أصدقائي حوْلي. وفي ذلكَ اليوم، كنتُ قد بدأتُ أنسجُ الخيالاتِ حولَ ما سيكون عليه الحالُ حينَ آتي وحدي، رأيتُ نفسي أتسلّق التلّ هادئةً متأمّلةً، بعدَ أنْ تعافيْت، حاملةً، ربّما، بعض الزّهور البريّة التي أكون قد التقطتُها بيديّ في الطّريق. تأمّلتُ الباب الخشبيّ الكبيرَ الدّاكنَ كثيرَ العُقد، وتحسّستُ مِقبضه المَعدنيّ الثقيل. كنتُ خائفةً ومُنهكة، ربّما كانَ من الأفضل أنْ أقفلَ راجعةً إلى البيت كي أنامَ وأستريح، ثمّ أعودُ إلى هنا عند الظّهر مع شخصٍ آخر، أو

لا أعودُ على الإطلاق، هذا احتمال آخر. دفعتُ الباب. كانَ مغلقًا. لكنْ من غير المفترض أن تغْلق المقابرُ ليلًا، كنتُ قد شاهدتُ ألف فيلم رعبٍ تدور أحداثها في المقابر ليلًا. إنّها يدي الخرقاءُ بلا شكّ، فلا يُمكنُ أنْ يكونَ البابُ مغلقًا. دَفعتهُ من جديدٍ واضعةً كلّ ثِقلي عليه دون جدْوى. لم أستطع التنفّسَ، وانتبهتُ فجأةً إلى أنّني كنتُ أبكي. قلتُ لنفسي: سأصلحُ الأمر، نعم سأصلحه. فلكلّ مشكلةٍ حلّ، سأتّصل برئيس البلديّةِ وأطلب منْه أن يأتيَ ويفتحَ لي الباب. سأتسلّق الجدار مثل الرّجل العنكبوت، وأكتبُ رسالةً غاضبةً إلى الصّحف. سأتحدّث إلى منظّمة العفو الدّولية. من المستحيل أنّ البابَ مازالَ يقاومُ وأنّه لنْ ينفتح. تنفّستُ بعمقٍ. وقلتُ لنفسي: سأحلُّ الأمر بالتي هي أحسن، دون أن أفقدَ أعصابي، وأنا واثقةٌ من أنّني سأنجح في النّهاية. طرقتُ البابَ هذه المرّةَ برفقٍ وهمستُ: «أمي، يا أمّي»، بصوتٍ خفيضٍ جدًّا، ومسندةً أذني إلى البابِ الخشبيّ الثّقيل. سمعتُ صوتَ خُطى هرٍّ في البعيد، فانتظرتُ قليلًا ولكنّ أحدًا لمْ يأتِ كي يفتحَ لي. هززتُ مِقبض الحديد الثّقيل ثمّ أخذتُ أطرقُ البابَ بكلّ ما أوتيتُ من قوّة -كما لو كنت أنا المسجونةَ في مكانٍ مُقفل- حتّى أجبرني الألمُ في قبضتيْ يديّ وراحتيْهما على التوقّف. فجلستُ مهزومةً مُنهكةً في المقعدِ الكائنِ عند مدخلِ الصّومعة. طلعَ الفجرُ دون أنْ أنتبَه، وأخذ ضوءٌ صافٍ ووورديٌّ يداعبُ أشجار الزيتون الفضيّة، وصبغَ بالأحمر الجُدران البيضاء، ورطّبَ على نحوٍ خفيٍّ، الدّروبَ الترابيّة. عرفتُ هذا الضّوء الخاصّ كما لو كانَ نداءً من شخصٍ أعرفه. وقفتُ على المقعدِ وأطللْتُ برأسي من الجدار

الذي يُرى من عنده حقل الزيتون ومن ورائه ميناء (ييغات)، الميناء الصغير الذي كنّا نحفظُ فيه القارب، وإذ ذاكَ رأيتُها. كانتْ تمشي على طول المَرفأ بقميصها الحائلِ ذي المربّعاتِ الزّرق فوقَ ثوبِ السباحة، وبساقيها السمراويْنِ الجميلتيْنِ المليئتيْنِ بالرّضوضِ، وصندلِها الذي يشبه صندل فتاةٍ صغيرةٍ حيثُ قدماها مدفوعتانِ قليلًا إلى الأمام، ونظّاراتِها المائلة، وشعرها الفوضويّ تحتَ قبّعةٍ يبّسها الماءُ المالح، كانتْ مصحوبةً بكلابها الثلاثة -باتوم ونانا ولونا- الخارجة للتوّ من الماءِ. وتوجّهتْ، سعيدةً، نحو القارب. كانَ البحر مثلَ صحنٍ عظيم، وكان الجوُّ لطيفًا. وقبل أنْ تصعدَ على متنه، التفتتْ إلى الوراء وابتسمت لي قائلةً:

- وهذا أيضًا سوف يمضي.

وغمزتني بطرف عينها.

خاتمة

قضّيتِ اللّيلة الماضية وحدَكِ. كنتُ معك طوال اليوم في المشفى ممسكةً يدك، وحينَ قال لي الطبيبُ إنّكِ قد تحسّنتِ -مع أنّه كان يكفيني أنْ أنظرَ إليك لأعرفَ أنّ ذلكَ لم يكن صحيحًا- قرّرتُ العودة إلى المنزلِ والمكوثَ فيه بعض الوقت كي أنام وأستريح. كنتُ أودُّ أن أموت معك، في الغرفة نفسها، في اللحظة نفسها، لا في صباح اليوم الموالي حين فارقتِ الحياة. تمنّيتُ لو كنتُ هناكَ، ممسكةً يدكِ حتّى لحظةِ نهايتنا معًا. ها أنا أمشي الآنَ على أرضِ الأحياء، مبتهجةً بهذا القدرِ أو ذاك، وحيدةً بهذا القدرِ أو ذاك، لكنْ لي قدمٌ دومًا حيثما أنتِ. أحيانًا أروي لنفسي القصّة التي رويتِها لي ذاتَ يومٍ، جالسةً على سريري كي تواسيني في وفاة والدي: في يومٍ من الأيّام، وفي بلادٍ بعيدةٍ جدًّا، لعلّها الصين، كان إمبراطورٌ قويٌّ جدًّا، ذكيّ ورحيم، قد استدعى حكماءَ مملكته جميعًا من فلاسفةٍ ورياضيّين وعلماء وشعراء، وقال لهم: «أريد جملةً قصيرة، تصلحُ لجميع الظروفِ والأحوالِ وعلى الدّوام». غادرَ الحكماءُ المجلسَ وأمضوا شهورًا وشهورًا يفكّرون. وأخيرًا عادوا إلى الإمبراطورِ وقالوا له: ها قد عثرنا على الجملة، إنّها ما يلي: «وهذا أيضا سوفَ يمضي». ثمّ أردفْتِ قائلةً: «الألمُ والحزن يمضيان هما أيضًا، كما تمضي البهجةُ والسّعادة». الآن بتُّ أعرفُ أنّ

هذا ليس صحيحًا. سأعيش دونكِ حتّى أموت. لقد منحتِني الحبَّ من النّظرةِ الأولى كصيغةٍ وحيدة للوقوعِ في الحبّ (وكنت على حقّ)؛ كسهمٍ أَصبتُ به حبَّ كثيرٍ من الأشياء: الفنّ والكتب والمتاحف والباليه. علّمتني الكرمَ غيرَ المحدود في الإنفاق، واتّخاذ المواقف النبيلَةِ في الظروفِ المناسبةِ، والحزم في القولِ والفعل، وعدم الشعورِ بالذنب، والتمتّع بالحريّة مع كلّ ما تنطوي عليه من مسؤوليّة. في البيْتِ، لمْ يكنْ أحدٌ يشعرُ بالذّنبِ لأيّ شيء. كانَ الواحدُ منّا يفكّرُ ويفعل، وإذا أخطأ، لم يكنْ ثمّةَ داعٍ لأنْ يشعرَ بالذّنب. وكانَ يكفيه أنْ يتعاملَ بصبرٍ مع التّداعياتِ لا أكثر. أعتقد أنّني لم أسمعْ منكِ يومًا عبارةَ: «أنا آسفة». كما أنّكِ وهبتِني الضحكةَ المجنونة، ومتعةَ عيشِ الحياةِ والانخراطِ التّامِ فيها، وحُبّ الألعاب على اختلافها، وازدراءَ كلِّ ما كان يحطّ في نظَركِ من قيمةِ الحياةِ أو يخنقُها: البخلُ وعدمُ الوفاء والحسدُ والخوفُ والغباء، والقسوةُ على وجه الخصوص. وأخذتُ عنكِ حسَّ العدالةِ أيضًا والتّمرّد والوعي الشديدَ بالسّعادةِ لحظة تصبحُ بينَ يديْك، قبل أن تطيرَ من جديد. أتذكَّرُ اللّحظاتِ التي كانتْ تتقاطعُ فيها نظراتُنا للحظةٍ على مائدة تعجُّ بالناس، أو ونحنُ نتمشّى في مدينة مّا غريبةٍ، أو على البحر، فنشعرُ لحظتها وكأنّ غبار جنيّاتٍ قد تساقط فوق رؤوسنا، وإذا بنا لم نرتفعْ عن الأرضِ محلّقتيْن على طريقةِ بيتر بان[1]، لكنّنا كذْنا. فتبتسمينَ لي من بعيدٍ، وأنا أعرف أنّكِ كنتِ تعرفينَ ما نعرفهُ كلتانا، فنشكرُ الآلهة سِرًّا على

(1) شخصية خيالية في عملٍ للروائيّ والكاتب المسرحيّ الاسكتلنديّ جيمس ماثيو بري. وقد حوّلتْ إلى فيلم رسوم متحرّكة يحمل اسم الشخصيّة.

تلك الهديّة المجنونة، على ذلكَ الغوصِ المثاليّ في أعالي البحار، وذاكَ الشفق الورديّ، وتلكَ الضّحكاتِ بعد زجاجة الغرابا[1]، والأفعالِ والحركاتِ الهزليّة التي بسببها كان الناسُ الذين يحبّوننا، يحبّوننا بعدُ أكثر. كما أنّكِ تركتِ ليَ العظمةَ. تلكَ القدرةَ على تسميةِ الأشياء ورؤيتِها، والتسامح الحقيقيّ مع عيوبِ الآخرين ونقاطِ ضعفهم. وأشكّ في أنّني قد ورثتها عنكِ، لكنّني أضعها صوبَ عينيّ وأعرفها جيّدًا، وبتُّ منذُ رحيلكِ، أسعى إليها مثلَ كلبٍ جائعٍ، أو مُدمنٍ غائرِ العينيْن تظهرُ عليه علاماتُ الحِرمان؛ أشتمّ رائحتها وأسمعها وأميّزها (أحيانا تكفيني حركة يدٍ)، وها هي ذي تتجدّدُ في ولديّ، اللباقة وحسنُ الخلق، والبعدُ التّامُّ عن التّباهي. وكلّ شخص يأتي إلى البيت، الذي يزوره أناسٌ غريبو الأطوارِ جدًّا، ممتلئون بالجراح ومجانين جدًّا، يستقبله حفيداكِ بكثيرٍ من الودّ والترحابِ والاحترام، والمراعاةِ لشعوره والحنوّ عليه. وكلّما مررْنا بالسيّارةِ أمامَ آخرِ شقّةٍ سكنتها، في شارع مونتانر، أنظرُ خفيةً عبرَ المرآة الخلفيّةِ إلى حفيدك الأكبر يرفعُ نظرهُ إلى شرفتكِ في صمْت، وأفكّرُ في أنّه بوسعي، ربما، أنْ أخبرَه أنّك في مكان أفضلَ الآن، ولكنّني أعلم أنّ هذا ليس صحيحًا، فخلال وقتٍ طويلٍ لم يكنْ هناكَ ما هو أحبُّ إلى قلبكِ من أنْ تكوني رفقةَ حفيديْكِ. ذاتَ يومٍ سنتحدّثُ طويلًا عنك. ها أنا قد بدأتُ أتنفّسُ على نحوٍ أفضلَ وقد صارت الكوابيسُ، الآن، نادرًا ما تنتابني. وأشعر، في بعضِ الأحيانِ، بغبارِ الجنيّاتِ قد بدأ يحومُ فوقَ

(1) مشروبٍ كحوليّ شهيرٍ في إيطاليا والأوروغواي والأرجنتين وسويسرا الإيطالية.

رأسي مجدّدًا، ليس بكميّةٍ كبيرةٍ ولا بوتيرةٍ عاليةٍ، لكنّها البدايةُ على كلّ حال. ولدينا الآن مُستأجِرٌ جديد في المنزل اسمه ري. أحاول أنْ أدرّبَ ولديّ على اصطحابه يوميًّا في نزهة. أخذتُ سُترتَكِ إلى المصْبَغة، أولَّ أمس؛ وقد أخبروني أنّهم سيعيدونها إليّ يوم الخميس، «كأنّها جديدة».

ميلينا بوسكيتس

وهذا أيضاً سوف يمضي

لسببٍ مّا غريبٍ، لم أفكّر يوماً في أنّني سوف أبلغُ الأربعين من العمر. في سنّ العشرين، كنت أتخيّل نفسي في الثلاثين أعيش مع حبّ حياتي محاطةً بكثير من الأبناء، أو في الستّين أعدّ كعكة التفاح مع أحفادي، أنا التي لا أجيد قلي بيْضة، لكنّني قد أتعلّم. أو حتّى في الثمانينَ عجوزاً هرمةً تشرب الوسكي مع صديقاتها. غير أنّي لم أتخيّلْ نفسي مُطلقًا في الأربعين، ولا حتّى في الخمسين. وهأنذا اليومَ، في جنازة أمّيَ، وعلاوةً على ذلك، في الأربعين من العمر. لا أدري كيف وصلتْ بيَ الأمورُ إلى هذا الحد..."

هكذا تُفتتح الرواية إذ تفيق البطلة على نبأ وفاة أمّها، تلك المرأة التي لم تكتشف شدّة تعلقها بها وتأثيرها في كامل تفاصيل حياتها إلاّ بعد فقدانها، وكأن الموت منبه يدقّ ساعة الخروج عن الطور الأموميّ، فتطفق الشخصيّة تبحث عن ذاتها بين من بقي لها في الحياة، عشّاقًا وصويحبات وأبناء.

"وهذا أيضًا سوف يمضي" للكاتبة الكتالونية ميلينا بوسكيتس، رواية مسكونة بأسئلة الزمان تعرّي الإنسان وتفضح هشاشته لتضعه في مواجهة مصيره، فلا شيء يبقى على حاله، ويحافظ على حقيقته سوى الغياب.



9 789938 992762



